عبدالوهاب مطاوع

مكتوب على الجبين



مقدمة الكتاب

ليس عندى شىء جديد أقدم به هذا الكتاب إلى القراء..

ففى مقدمات كتبى المماثلة التى تضم نماذج مختلفة من القصص الإنسانية التى تعاملت معها فى «بريد الجمعة».. ما يغنى عن أى مزيد!

.. ولكنى سأقول فقط إن هذا الكتاب مجموعة جديدة من تلك الهموم التى يحملها «جبين البشر»، والتى روعت الفتاة العمياء فى رواية السيمفونية الريفية لأندريه جيد حين رُدَّ إليها بصرها.. ورأتها لأول مرة وقد كانت من قبل تظن أن كل من يبصرون سعداء!

وهكذا الإنسان دائما فى كل زمان ومكان..

فمن تؤلمه ضروسه يظن أن كل مالا يشكون أوجاع الأسنان سعداء، كما يقول لنا الأديب الإيرلندى «برنارد شو» العظيم ولسوف يظل على هذا الإعتقاد الخاطىء إلى أن يقترب منهم..

ويطلع على حياتهم فيعرف أن لكل إنسان من أشجانه.. ما يتطلع للسماء داعياً ربه أن يكشفه عنه ومن أمنياته ورغائبه.. ما يبتهل إليه أن يحققه له..

ويبقى دائما فى النهاية انه من أهم أسباب شقاء الإنسان أن يثّبت عينيه على ما ينقصه وحده فيغفل عما أتيح له من أسباب أخرى للسعادة، وأنه بقدر ما يستطيع الإنسان أن يتبين ما بين يديه من أسباب للرضا، ويعرف لها قدرها ويشكر ربه عليها، فإنه يستطيع أيضاً أن يضع همومه الأخرى فى موضعها الصحيح من حساب السعادة والشقاء.. ويقبل بها وعلى الصفحات التالية من هذا الكتاب «سطور» قليلة مما «قرأته» الفتاة العمياء على جبين البشر حين إستعادت بصرها لأول مرة.. وشكراً

عبد الوهاب مطاوع

١

الشىء الجذاب!

«الجائزة التى ينالها من يحرمون أنفسهم من المتع واللذات غير المشروعة ـ بانواعها ـ هى فى الثقة التى يهبها لهم الآخرون بلا تحفظ، وفى الارتفاع فوق الريب والظنون»

دفعنى للكتابة إليك ما قرأته فى رسائل بريد الجمعة من قصص وتجارب فجَّرت ذكريات الماضى فى حياتى فخرجت من قوقعتى لأروى لك - أنا أيضا - قصتى.

أنا سيدة متوسطة العمر نشأت فى أسرة مكونة من أبى الطبيب - رحمه الله - وأمى الرزينة الصبورة وأختى التى تكبرنى وفى نهاية المرحلة الجامعية تقدم لأختى طبيب شاب وتم زفافها إليه عقب التخرج مباشرة -وبعدها بعام -وكنت أزال فى بداية دراستى الجامعية تقدم لى أيضاً شاب وسيم ترشحه مؤهلاته لمستقبل عريض، فأصر أبى على ألايتجاوز الارتباط قراءة الفاتحة حتى لا أتوقف عن دراستى، وبعد شهور قليلة تلقى خطيبى منحة دراسية فى الولايات المتحدة الأمريكية لمدة أربع سنوات ورغب فى إتمام الزواج بإصرار لكى يصطحبنى معه ووعد أبى ألا يقف فى طريق دراستى هناك إذا رغبت فى ذلك فوافق أبى على هذا الشرط وتزوجنا وسافرنا إلى أمريكا والآمال المشرقة تتراقص أمامى.. ووجدت زوجى إنسانا محبا متفاهما لطيفا فاقتربت منه وأحببته حبا ملك علىَّ كل مشاعرى وكيانى وحمدت الله كثيرا الذى وفقنى إلى زوج له هذه الصفات الطيبة الحميدة لكنى اكتشفت فيه بعد فترة من الزواج عيبا بدأ يؤرقنى ويعكر علىَّ صفو حياتى معه، فلقد كان ينزعج بشدة لأناقتى وحُسن مظهرى وهندامى ويثور على ذوقى فى اختيار ملابسى مهما كانت محتشمة وبسيطة. وسألته فى لحظة صفاء عن سر اعتراضه

الدائم على مظهرى وملابسى وزينتى البسيطة برغم التزامى بالاحتشام وبالحد الأدنى للمظهر اللائق بعروس جديدة مثلى فأجابنى بصراحة بأن فىّ شيئا جذاباً يخشى أن يجذب إلىّ الآخرين وأن هذا الشىء الجذاب هو الذى دفعه لأن يعجّل بعقد قراننا حتى لايعطى الفرصة لأحد لأن ينجذب إلى. وتناقشت معه حول هذا الأمر طويلا فلم يقتنع بمنطقى ولم أقتنع بمنطقه لكنه حرصا منى على عدم إغضابه راعيت دائما البساطة فى مظهرى وقللت من زينتى إلا من لمسة طفيفة تحدد ملامحى.. ولم يكتف زوجى بذلك بل راح يضيق علىّ فى الخروج مع صديقاتى لقضاء بعض طلبات الشراء أو الالتقاء بهن من حين لآخر فأطعته واستجبت لكل رغباته ومضت خمس سنوات وأوشكت دراسته على الانتهاء، وكنت قد أجلت خلالها دراستى لانشغالى به وببيتى وبالطفلين الجميلين اللذين رزقنا بهما الله فى غربتنا فمضت حياتنا هادئة وجميلة وكنا نزور الأهل فى مصر مرة ومرتين كل عام وعدنا إلى مقر عمل زوجى فى أمريكا ذات يوم بعد إجازة من هذا النوع فوجدنا فى صندوق البريد دعوة لزوجى لحضور مؤتمر طبى يسبقه حفل تعارف للأطباء وزوجاتهم مع دعوة لزوجى لإلقاء كلمة الافتتاح فى المؤتمر. وفى اليوم المحدد توعك ابنى الأكبر فاعتذرت لزوجى عن مصاحبته إلى الحفل والمؤتمر ومكثت بالبيت لرعايته، وذهب زوجى وحده، وفى صباح اليوم التالى استيقظت من نومى فوجدت زوجى مستلقيا بملابسه على أرض غرفة المكتب

ويبدو عليه الإرهاق والتعب ودهشت للمنظر غير المألوف وأيقظته ليخلع ملابسه ويستريح فى غرفة النوم وفسَّر هو لى هذا التصرف الغريب بأنه قد عاد متأخرا ليلة أمس ولم يشأ إزعاجى بدخول الفراش حتى لاأستيقظ ولم يقتنع عقلى بهذا التفسير المريب.. وبدأت ألاحظه باهتمام بعد ذلك فلاحظت تغييرا كبيرا فى تصرفاته خلال الأيام التالية فقد أصبح شارد الذهن قليل الكلام ضعيف التركيز، كما كثر خروجه منفرداً فى المساء وبأعذار مختلفة واستمر زوجى على هذا الحال بضعة شهور فاتحته خلالها بما ألاحظه عليه من تغيرات وأجابنى بأنها بعض المشكلات فى العمل وسوف تنتهى قريباً. وازدادت حيرتى وقلقى وبإحساس المرأة شعرت بأن هناك شيئا أكبر من مشاغل العمل ومشكلاته، ولم تطل حيرتى كثيرا فقد كنت أعدّ بعض ملابسه لإرسالها إلى التنظيف. فوجدت فى إحدى بدله بطاقة صغيرة باسم سيدة وعنوان عملها ورقم تليفونها وأجريت بعض التحريات فعلمت أنها تعمل بشركة متخصصة فى ترتيب الحفلات والمؤتمرات.. كما علمت أنها كانت السيدة المكلفة بإعداد المؤتمر الذى تغير حال زوجى بعده إلى النقيض.

وقررت أن أتحقق من ظنونى قبل أن أظلم زوجى وتربصت له ذات مساء وهو يهم بالخروج فتعللت بالخروج لشراء بعض مستلزمات البيت وخرجت قبله بعدة دقائق واختبأت داخل سيارتى الصغيرة وانتظرته حتى خرج وركب سيارته وتعقبته بحرص وأنا

أرتجف خوفاً من أن أكتشف ما يسوؤنى فإذا به يتوقف بسيارته أمام بيت جميل وتفتح له سيدة الباب ثم يدخل ويغلق الباب وراءه وعدت إلى بيتى خائرة القوى وقد أظلمت الدنيا فى وجهى.. ولم أفاتح زوجى بما رأيت وإنما تولتنى رغبة شديدة فى أن أرى هذه السيدة عن كثب لكى أعرف أو أكتشف سر انجذاب زوجى إليها وخيانته لعهدى معه فذهبت إلى هذه السيدة فى مقر عملها واختلقت قصة حفل صغير أريد إقامته وتأملتها بعمق طويلا فوجدتها امرأة على قدر كبير من الجمال وجذابة ورشيقة وشديدة الاهتمام بهندامها لكنى مع ذلك لم أشعر بالغيرة منها بل على العكس أحسست بسكينة غريبة تنزل على روحى بعد أن رأيتها، إذ لم أجد فيها ما يميزها عنى فى شىء اللهم إلا ملامحها الغربية اذا كانت هذه ميزة، ومضى على هذا الحدث أسبوع ولم أوجه خلاله لزوجى كلمة واحدة وتفرغت لأداء دورى كأم لأولادى فقط ولم يخف على زوجى تغيرى معه ،ونفورى منه ،وسألنى عن السبب فصارحته به ،وطلبت منه الطلاق لأن علاقتى به كزوجة لن ترجع أبدا إلى ما كانت عليه قبل الخيانة إذ إننى لا أعترف بالعلاقة الوسط فى هذه الأمور ولا أقبلها فإما إخلاص والتزام فى كل شىء.. وإما انفصال، فبهت زوجى وطلب منى أن أصفح عنه وألا أتسرع فى قرارى حرصا على مصلحة أولادى وسوف يقطع علاقته بهذه السيدة فوراً فصارحته بأننى كنت على استعداد لأن أغفر له ما فعل له لو كان بى شىء يعيبنى فى نظره كزوجة أو

يفتقده لدىّ ويجده لدى هذه السيدة ،وسوف أتقبل نقده لى بصدر رحب، فأجابنى بأنه ليس هناك رجل لم تنزلق قدمه إلى الخطأ مرة وقد أخطأت وأعتذر عن خطئى فثرت عليه لأول مرة فى حياتنا وقلت له إن هناك نساء خاطئات أيضا فهل كان سيصفح عنى ويسامحنى لو كنت قد أخطأت ،أنا التى كان يخشى عليها فى بداية زواجنا من الشىء الجذاب الذى يجذب الرجال إليها. وجُنّ جنونه وصممت على الطلاق.. ورفض هو طالبا فرصة أخرى ومضت بضعة شهور قطع فى خلالها علاقته بهذه السيدة وصنع كل ما فى وسعه لاسترضائى فراجعت نفسى بعد أن هدأت بعض الشىء وقررت أن أعطى نفسى وأعطيه فرصة للإصلاح حرصا على أبنائى لكنى للأسف لم أستطع الاستجابة له أو الاطمئنان إليه، فقد فقدت ثقتى فيه واحترامى له وأصبحت كلما خرج إلى عمل أتشكك فى خروجه وإذا تحدث فى التليفون ساورتنى الهواجس كما أصبحت أنفر من كلامه الذى كنت لا أملُ سماعه أبدا ولم يعد أى شىء من ناحيته يرضينى أو يستميلنى أو يحرك عواطفى تجاهه.. وبعد أن يئست تماما من أن أستعيد حياتى الطبيعية معه تم الطلاق وكان مبررى له أنها لو كانت نزوة عابرة فى موقف معين.. أو كان بى عيب قد دفعه للنظر إلى غيرى لربما سامحته على ما فعل أما أن تكون الخديعة طويلة ومستمرة حتى أكتشفها قدراً فهذا ما لم يستطع قلبى أن يغفره له أبدا ، وغادر زوجى البيت ولم أشعر بأى ندم على القرار الذى اتخذته لكن الألم

كان يعتصر قلبى فقط لافتراق الولدين عن أبيهما وبرغم ذلك فقد فضلت هذا الوضع بما فيه من آلام على أن أعيش مع رجل قد غدر بى وأخشى أن أفقد احترامى له أمام أبنائه. وعكفت على تربية الولدين ،وقمت بعمل دراسات متخصصة ثم نزلت إلى ميدان العمل إثباتاً لذاتى ووجودى ولم ييأس زوجى من الأمل فى استعادتى فتعدد الوسطاء بينى وبينه وازداد تمسكه بى حين تأكد أننى لم أفصح عن سبب طلاقنا لكل من سعى بالصلح بيننا حرصاً على صورته امام أبنائى.. لكنى برغم ذلك لم أستجب لهذه المحاولات ومضت السنوات وأنا أعيش مع الولدين وقد ملآ علىّ حياتى بشئونهما ودراساتهما وحكاياتهما التى لاتنتهى.. ثم جاء موعد التحاق ابنى الأكبر بالجامعة فى مدينة بعيدة عن المدينة التى نعيش فيها فودعناه أنا وابنى الأصغر وأضيفت إلى حياتنا اتصالاتنا التليفونية به ومراسلاتنا معه وهدايانا إليه فى المناسبات وانتظار اجازته بفارغ الصبر، ثم حدث مؤخرا ما زلزل كيانى ياسيدى لأول مرة برغم كل ماواجهته من تقلبات الحياة فى الغربة طوال هذه السنين، فلقد جاء دور ابنى الأصغر للحاق بأخيه الأكبر فى جامعته البعيدة وأعددت له كل شىء يحتاج إليه فى حياته الجديدة ،وتمالكت نفسى وأنا أحتضنه وأقبله وأودعه عند الباب وما إن غادرنى فى طريقه إلى جامعته ومستقبله حتى انهرت لأول مرة منذ طلاقى وانخرطت فى بكاء مرير طويل وعشرات الأسئلة تطوف بذهنى عن حياتى وطفولتى وزواجى.. وإخلاصى لزوجى

ووحدتى بعد الانفصال والتزامى الخلقى طوال هذه السنين، ولم أشعر بمرارة الوحدة ولابقسوة الغربة بعد انفصالى عن زوجى طوال هذه السنوات التى غادرنى فيها ابنى الأصغر. إننى أكتب لك رسالتى هذه من منتجع لجأت إليه لأستجم بعض الوقت وأستجمع إرادتى للحياة مرة أخرى لعل قصتى هذه تكون رادعا لكل من تستدرجه وساوس الشيطان إلى الخطيئة.. فيحصل على متعة وقتية زائلة لاتساوى أبدا تشتت الأسرة وتهدمها، ناهيك عن الطرف المخدوع وما يصيبه منها من شعور بالرفض وإحساس بالطعن فى الشرف والكرامة.. إذ كيف يصبح حال الدنيا لو ترك الإنسان عواطفه بلا ضبط ولاربط ؟ وكيف يصبح حال الإنسان نفسه إذا انقاد وراء غرائزه وحدها وقد ميزه الله بالعقل والإدراك؟

لقد شارفت الآن ياسيدى على نهاية العقد الرابع من عمرى ورأيت أنه قد آن الآوان لأن أكون عادلة مع نفسى بعد أن أديت الجزء الأكبر من رسالتى تجاه أبنائى، وقد تذكرت لك عبارة قرأتها فى أحد ردودك تقول فيها إن هناك دائما زوجة مناسبة لكل باحث عن شريكة حياة لكنه لم يلتق بها بعد.. فهل أجد حتى داخل مصر أو خارجها هذا الباحث عن شريكة لحياته يخلص لها ويرعى الله فيها ولايخونها؟

إننى مازلت أحتفظ بصحتى ورونقى ورشاقتى وأفضل الإقامة هنا فى كاليفورنيا بالقرب من أبنائى لكن الأمر قابل للنقاش برغم ذلك إذا توافرت العوامل الأساسية لاتفاق الطرفين وقد [illegible]

وفرص العمل جيدة فى مجالات العمل الحر والمشروعات التجارية الصغيرة وسوف يتيسر استخراج الإقامة والحصول على الجنسية بلا عقبات إذا أذن الله بالتوفيق إن شاء الله.. فماذا تقول لى ياسيدى؟

□ ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

للأديب الأيرلندى العظيم برناردشو كلمة حكيمة يقول فيها: إن سر الإحساس بالتعاسة هو أن يتوافر لديك الوقت لكى تتساءل فيه هل أنا شقى.. أم سعيد؟

وهذا صحيح إلى حد كبير ياسيدتى فالطبيعة ضد الفراغ وإذا خلا العقل مما يشغله من شئون الحياة اليومية والعمل والأبناء تسللت إليه الهموم والأفكار الحزينة وراجع الإنسان حياته وانتهى غالبا من مراجعته لها إلى أنه إنسان تعيس ووحيد ومحروم من الأمان والسعادة!

ومن هنا تأتى أهمية أن ينشغل الإنسان دائما بهدف يسعى إليه.. ويعمل ويشغل أوقاته وخاطره.. وبخطوة يرغب فى إتمامها لكيلا يتوافر له الوقت الذى يتساءل فيه عن سعادته أو شقائه.

وأنت ياسيدتى: قد خلت حياتك بعد رحيل ولديك إلى جامعتهما البعيدة من الانشغال بشئونهما الصغيرة.. وحكاياتهما العديدة.. وضجيجهما الممتع وأصدقائهما الظرفاء فافتقدت الحماية النفسية ضد الوحدة والإحساس بالاغتراب التى كان

يمثلها لك قرب ولديك منك، فتوافر لديك الوقت لمراجعة حياتك وراحت عشرات الأسئلة تتخاطف داخلك عما شهدت حياتك من أحداث وما اتخذت من مواقف ولربما راجعت هذه المواقف الآن بعد أن هدأت الانفعالات والخواطر وتساءلت.. ألم يكن من الأفضل والأبعد نظرا أن تكونى قد اعتصمت فى بعض المواقف السابقة بروح التسامح والاستعداد لتقبل توبة التائبين أو التسليم ببعض صور الضعف البشرى والتجاوز عنه؟ وألم يكن من الأوفق أن تقبلى توبة زوجك وندمه ومحاولاته المستميتة للتكفير عن خطئه فى حقك واستعادتك قبل الانفصال وبعده؟

إننى لاألومك على ما اتخذته من مواقف متشددة فى حياتك فكل إنسان أدرى بما تقبل به طبيعته وما لا تقبل به وليس كل الناس قادرين على التعايش مع بعض نواقص الحياة لكن المأساة هى أن الإنسان فى فتوته وشبابه يكون أكثر قدرة على اتخاذ المواقف الصارمة وتحمل تبعاتها بشجاعة ومواجهة الحياة وحيدا على إثرها، وقد تغريه قوته النفسية آنذاك بألا يقبل التنازل قيد أنملة عن تصوراته للحياة المثلى كما يريدها لنفسه فيتخذ من المواقف ما يراه صحيحاً ولايستطيع التنازل عنه.. وقد تكون هذه المواقف صحيحة فعلا بل ومثالية أيضا لكن قسوة الحياة وتعقدها وتشابك العلاقات الإنسانية وتأثر الآخرين والأعزاء على وجه الخصوص بما نتخذه نحن من هذه المواقف المبدئية الصحيحة يقنعنا بالتجربة بأن الحياة إنما تتطلب من المرء قدرا أكبر من

المرونة والتسامح معها ومع أخطاء الآخرين فى حقنا وإلا حكمنا على أنفسنا بالوحدة والاغتراب النفسى وسط زحام الجميع والمبدأ الشرعى الذى يقول إن دفع الضرر مقدم على جلب المنفعة، مبدأ حكيم يهدينا إلى أن نضع هدف دفع الضرر عن أعزائنا فى الحسبان ونحن نتخذ فى حياتنا ما نراه صائبا من مواقف وقرارات فحتى الموقف الصحيح قد تؤدى المغالاة فيه والتزمت فى التمسك به بلا مرونة وبلا أى استعداد للصفح والمغفرة ومنح الآخرين فرصة عادلة للإصلاح والبدء من جديد.. قد يؤدى كل ذلك إلى إلحاق الضرر بمن يهمنا أمرهم.. وبنا نحن أنفسنا فى النهاية.. ولست - مرة أخرى - ألومك على ما اتخذت من مواقف صارمة لاتقبل المهادنة مع زوجك السابق، لكنى قد أردت فقط أن أضيف إلى ماأردت أنت لنا أن نستفيد به من دروس تجربتك هذا الدرس الآخر الذى لايقل أهمية عن دروس رسالتك وهو أن المواقف الصارمة المتحجرة حتى ولو كانت صحيحة ومبدئية فإنها قد لاتكون فى بعض الأحيان هى المواقف الحكيمة التى تكفل للإنسان ولإعزائه سعادتهم.. أو تدفع عنهم الضرر الأكبر.. وهو فى حالتك الوحدة.. والإحساس المرير بالغربة.. ناهيك عن افتقاد ابنيك لدور أبيهما فى حياتهما. أما التحذير الذى تنبهين إليه الجميع من عدم الانقياد لغرائزهم وشهواتهم العابرة التى لاتستحق أبدا أن تنهدم بسببها الأسر الآمنة ويتشتت الأبناء فإنى أؤكد عليه معك بلا تحفظ فالإنسان ياسيدتى تتنازعه دائما قوتان

تدفعه إحداهما إلى النزوع لإشباع دواعى الفطرة والغريزة فيه دون توقف أمام روادع القيم والدين وحقوق الآخرين ،والخوف من العقاب.. إلخ.. وتدفعه القوة الأخرى المتمثلة فى هذه الروادع نفسها إلى كبح جماح فطرته ورغباته بما كان يسميه أستاذنا المرحوم الدكتور زكى نجيب محمود «بالشكائم التى تشكم جموح النفس البشرية.. والكوابح التى تكبح رغباتها الجنونية» أما الجائزة التى ينالها من يحرمون أنفسهم من هذه المتع واللذات غير المشروعة بأنواعها فهى فى الثقة التى يهبها له الآخرون بلا تحفظ وفى الارتفاع فوق الريب والظنون ولقد عبرت أنت عن ذلك بصدق حين تحدثت عن عجزك عن استعادة ثقتك فى زوجك بعد الخيانة فأصبحت تتشككين فى كل حركاته وسكناته حتى ولو كانت بريئة.. وأحسبها كانت كذلك لكن الثقة كائن شديد الحساسية إذا خدش مرة فإن جرحه لايلتئم بسهولة ويحتاج إلى وقت طويل وتجارب متكررة لكى يستعيد عافيته ومصداقيته لدى الآخرين.. فلماذا نفسد على أنفسنا براءة المشاعر بالخطايا التافهة ولماذا لانستمتع بعافيتها وجمالها بغير أن تخدشها الخدوش والجروح الغائرة؟

لقد فهمت من إغفالك الإشارة إلى زوجك بعد الانفصال أنه بعد أن يئس من استرجاعك ونيل صفحك قد تزوج وربما يكون قد أنجب أيضا وأصبحت له حياة أخرى مستقرة.. ولولا ذلك لنصحتك بالتماس الطريق للعودة إليه بعد أن تكفل الزمن بمداواة

كل الجـراح لأنه أحق بك ،وبولديه من أى إنسـان أخـر.. أمـا وقـد تجاهلت الإشـارة إليـه ، فـإن ذلك يرجـع عندى احـتـمـال ارتبـاطه بزوجة أخرى وحياة جديدة. وعلى هذا فلسوف أكتب لك بما أتلقاه من عروض ملائمة لك، و أجذب نظر الراغبين مقدما إلى أنهم إنما يتقدمون إلى من لاتغفر الخيانة.. ولاتتسامح معها.. ولاتقبل حتى الندم عليها والتكفير عنها.. فمن يرى فى نفسه الصلاحية فليتقدم مشكوراً.. وقد أعذر من أنذر!

٢

علامات الخطر!

« همة الانسان هى التى تُعينه على مـغـالبـة أهواء النفس ، وعـدم الانسياق وراء رغـائبها ـ وحدها ـ دون رادع من ضمير أو دين ».

أرجو أن يتسع صدرك لرسالتى هذه فقد دفعنى لكتابتها لك تأثرى برسالة «الموعد النهائى» للزوج الذى طالبته زوجته فجأة بالطلاق بعد ٢٣ سنة تفانى خلالها فى حبها وإسعادها لتتزوج ممن تعرفت به قبل ثلاثة شهور فقط مضحية بأبنائها وزوجها، وقبل أن أبدأ فى سرد قصتى أقول لك إننى سيدة جامعية متوسطة العمر وقد تزوجت منذ ٢١ عاما بعد قصة حب عنيفة ألححت خلالها بشدة ـ وبكل الطرق ـ على أهلى لإقناعهم بقبول زواجى ممن أحببت حتى استسلموا فى النهاية وتم الزواج كما أردته، ومن العام الأول لزواجى أدركت أننى قد أخطأت الاختيار وأن أهلى كانوا على حق حين جاهدوا لإقناعى بالعدول عن هذا الزواج.

لكنى صبرت وصممت على نجاح زواجى بأى طريقة حتى لاأسلم بالفشل فكنت الزوجة المطيعة الصبورة لزوجى..

واهتممت بمظهرى وجوهرى وزوجى ورزقنى الله بولد وبنت فكنت لهما الأم والأب والمدرس، ولزوجى الزوجة والصديقة والحبيبة.. وجعلت من زوجى عريس حياتى الدائم منذ اليوم الأول لزواجنا وإلى النهاية حتى أطلق عليه الأهل والأصدقاء «الملك المتوج» على عرش قلبى لما أحيطه به من حب ورعاية واهتمام وثقة فيه بلاحدود، ومضت حياتنا هادئة وكافحنا سويا وسافرنا للعمل فى إحدى الدول العربية لعدة سنوات عملت خلالها مدرسة إلى جانب عمل زوجى لنرفع من مستوى حياتنا، واكتفينا بما حققناه

فى خلال سنوات الغربة فعدنا إلى بلدنا منذ سبع سنوات.. ورأيت أنى قد أديت واجبى تجاه أسرتى بقدر استطاعتى فقررت التفرغ لزوجى وابنى وتركت العمل وبدأنا مرحلة الاستقرار والاستمتاع بثمرة كفاح السنين..

فشكرنا الله كثيرا على ما أعطانا ورجوته أن يشمل ابنىّ برعايته فيوفقان فى دراساتهما وحياتهما.

ثم رجعت من إحدى دول الخليج جارة لنا فى سكننا الجديد لم أكن قد رأيتها من قبل.. ففوجئت حين تعرفت إليها بشبهها الغريب لأختى الصغيرة التى حرمتنى منها ظروف مؤلمة لاداعى للإشارة إليها ،ولهذا السبب انجذبت إليها وشعرت بالعطف عليها وعلى ظروفها لأنها عادت مع زوجها وأسرتها فى ظروف مأساوية فقد خلالها زوجها عمله ومدخراته فى الدولة التى كان يعمل بها

ووقفت إلى جوارها وأحببتها من كل قلبى فكانت إذا مرضت قمت عنها بالتزاماتها الأسرية من طهى وعناية بطفليها الصغيرين الجميلين وقد كانت هى أيضا جميلة وفى الثلاثين من عمرها وذات يوم اشتد بها المرض فاصطحبتها إلى الطبيب الذى [illegible] بإجراء جراحة لها فى أقرب وقت، ولم تكن ظروفها المادية تسمح لها بتحمل نفقات هذه الجراحة فدفعت تكاليف الجراحة على [illegible] وتم إجراؤها وشفيت، وردت لى قيمتها حين تيسرت ظروفها [illegible] ذلك ثم ازددنا اقترابا واندماجا فى حياتنا الأسرية .. و

صديقتى هذه تشكو من زوجها ومن بعض جوانب تقصيره معها وقالت لى ولزوجى ذات مرة إنها تغبطنا على سعادتنا فلم أتوقف عند هذه العبارة العابرة، وازددت رضا عن حياتى وسعادتى وثقة فى نفسى وفى زوجى الذى لاينقصه شىء فى حياته .وبدأ زوجى بعد ذلك يطلب منى تقديم مزيد من الخدمات إلى هذه الجارة لأنها فى محنة وزوجها لايعمل وظروفه المادية سيئة ولم أتردد فى الاستجابة. ثم تحسنت أحوال زوجها وحصل على عمل جديد فى نفس الدولة التى كان يعمل بها ولكن بلا سكن عائلى يسمح له بجمع شمل أسرته فسافر إلى هناك تاركا زوجته وطفليه فى مصر.. وتزايد اهتمام زوجى بهذه الجارة بعد أن أصبحت وحيدة بدعوى أداء الواجب معها خلال غياب زوجها وأصبح لايشترى لبيتنا شيئا إلا اشترى مثله لها كما لو كان قد أصبح المسئول الأول والأخير عنها. وكثرت زيارات هذه الجارة لنا صباحا ومساءً. ثم حدث ذات يوم أن خرجت من مسكنها دون أن تبلغنى أو تبلغ زوجى عن وجهتها، وغابت فى الخارج طويلا فإذا بزوجى يثور لخروجها ثورة عمياء كأنما قد قصرت فى حق من حقوقه.. وتولاه الأرق لعدم رجوعها حتى إنه لم ينم لحظة من الضيق والقلق.. فبدأت فى هذه اللحظة أشعر بوجود شىء ما بينهما وأحسست بأن ثورة زوجى لخروجها دون إعلامنا بوجهتها ليست سوى غيرة رجل على امرأته لاجارة يؤدى معها واجبا إنسانيا.. وتأكدت شكوكى بما بدأت الاحظه عليه من أعراض النزوة الطارئة

ككثرة النظر إلى المرآة وضيقه بالشعر الأبيض الذى يتسلل إلى رأسه واهتمامه بعمل ، «ريجيم »قاس لتخسيس وزنه.. إلى جانب انشغال البال دائما والهموم بلا سبب ظاهر ثم فوجئت به يطلب منى أن أنبه على ابننا - وكان وقتها فى الصف الثانى الثانوى - ألا يقترب من أبيه حين يقابله فى الشارع لأنه أطول منه ولأن زوجى قد بدأ يشعر بالخجل حين يراه الناس وابنه الطويل الفارع يسير إلى جواره! وأدركت أن الأمر قد بلغ حد الخطر خاصة بعد أن بدأ زوجى - سامحه الله - يحتسى الخمر ويلاحظ عليه ابناى الاهتمامات المتبادلة بينه وبين جارتنا وكثرة الإيماءات والإيحاءات ويجذبان نظرى إلى كل ذلك كعلامات لخطر يهدد سعادتنا واستقرار أسرتنا ،ويتطلب منى اتخاذ إجراء حاسم قبل فوات الأوان. واستجمعت إرادتى وقررت قطع علاقتى بهذه الجارة غير الأمينة على الصداقة فإذا بزوجى يضيق بى وبالابنين ضيقاً شديدا ويكثر شجاره معهما، بل وضرب ابنه ذات يوم بعنف لأنه تجاسر ورد على هذه الجارة فى التليفون بشكل غير لائق وغادر البيت غاضبا ولم يعد إلا فى اليوم التالى. وبدأت أسوأ أيام العمر ياسيدى فى حياتى.. وجاهدت لإنقاذ زوجى وأسرتى وابنىّ بكل وسيلة ،وغمرت زوجى بالحنان والاهتمام وتوسلت إليه أن يقاوم ويصمد لنزوة سن الأربعين هذه التى تهدد حياتنا ، ويمكن تجاوزها بأمان وقلت له إننى أسامحه فيها وأصبر على مايفعل وسأقف إلى جواره حتى تمر المحنة ونعود لمواصلة حياتنا كما كنا

قبلها بل وقلت له إن قلبى معه فى محنته هذه وأشعر بالعطف عليه لابالضيق منه أو الغضب لأنه شريك عمرى وحياتى وحبى الأول والأخير ورجوته ألا يتعجل القرار وألا ينسى عشرة العمر وسنوات الحب قبل الزواج وبعده وسنوات الكفاح وأيامنا الحلوة. توسلت إليه بالكلام وبالدموع فإذا به يعترف لى بأنه يحب جارته ولا يملك من أمر نفسه معها شيئا وتوسلت إليها هى أيضا ورجوتها بدموعى أن تذكر حبى وعطفى عليها ووقوفى معها فى محنتها.. فلم تتحرك شعرة فى رأسها.

وبرغم كل ذلك لم يتحسن حاله بل ساءت حالته المعنوية والنفسية للغاية ثم تشاجر مع ابننا ذات يوم وغادر البيت معلنا أنه لن يرجع إليه إلى الأبد!

ومهما وصفت لك ما عانيته من آلام واكتئاب بعد خروجه ياسيدى فلن أستطيع أن أصور لك بصدق حالتى فى هذه الأيام السوداء.. فلقد تركنا زوجى بلا مال.. وهو لايحمل لنا- أنا زوجته وولديه - إلا كل كراهية مريرة وأسوأ الأمنيات لنا بأن نختفى تماما من الدنيا لكى يستطيع أن يستمتع بحياته ويحقق لنفسه ما يريد.. وتجرعت مرارة الإحساس بالرفض ممن كرست له كل حياتى وعانيت آلاما نفسية رهيبة حتى أصبحت أمنيتى الوحيدة خلال هذه الأيام أن أعرف شيئين هجرانى إلى الأبد هما طعم النوم الهادىء، والرغبة فى الطعام فقد كنت إذا نمت لاحقتنى الكوابيس المزعجة إلى أن أصحو أكثر تعبا وإرهاقا مما كنت قبل النوم،

وكنت لا أشعر بأية رغبة فى الطعام، وتمر الساعات الطويلة والأيام دون أن أشعر بالجوع أو أضع شيئا فى فمى حتى نقص وزنى من ٦٤ إلى ٥٠ كيلوجراما.. وأصبحت كالخيال ثم نظرت لولدىَّ وحزنهما من أجلى وتذكرت حاجتهما إلىَّ فتمالكت نفسى بعض الشىء ، ولجأت إلى الله سبحانه وتعالى وقرأت القرآن وتفسيره وسلمت أمرى إلى الله وإلى عدالته.. وعرفت أن زوجى قد اختار الدنيا وأننى اخترت الآخرة وحسن المآل، فصبرت على قضاء الله وقدره وأعطيت ابنىَّ كل اهتمامى ورعايتى. وبعد سنة وثلاثة شهور من مغادرة زوجى لبيته وصلتنى منه ورقة الطلاق بعد ١٩ عاما من الزواج وقبل شهرين فقط من امتحان الثانوية العامة لابنى ،وبعدها بأيام اختفت جارتى من مسكنها ولم يعرف أحد عنها شيئا وأخيرا تبين أنها قد أقامت مع زوجى السابق فى شقة مفروشة لمدة عشرة شهور وهى على ذمة زوجها ظهرت خلالها نتيجة ابنى فإذا به أحد أوائل الثانوية العامة العشرة، فعرفت على الفور أنها أولى جوائز السماء لى على صبرى ومعاناتى.. وتفويضى أمرى لخالقى جل شأنه. وكانت هذه هى أول فرحة للقلب الحزين من أكثر منذ عامين.

أما زوجى السابق وصديقتى السابقة فلم ينجوا من عقاب الله طويلاً، فلقد رجع زوجها من الخارج وراح يبحث عن زوجته ويترصدها حتى تم ضبطهما معاً فى الشقة المفروشة وتم القبض عليهما بالجرم المشهود وأفرج عنه بكفالة وما تزال قضيتهما

منظورة أمام القضاء حتى الآن، وفضلا عن ذلك فلقد عرفت تلك السيدة التى باعنى زوجى السابق، وباع ولدىَّ من أجلها بعد خروجها من الحبس أحد الضباط وأقامت معه علاقة آثمة مع استمرارها مع زوجى !وعرف زوجى السابق سيدة أخرى غيرها مع استمراره معها حتى ضبطته جارتى الغادرة معها وذاقت نار الغيرة التى نهشتنى بسببها طويلا.. وتذكرت حين بكيت لها وتوسلت إليها أن تدعه لشأنه فلم يرق قلبها لى.. فإذا بربك يرينى فيها ثأرى بأسرع مما توقعت وإذا بالعلاقة بين الحبيبين تنقطع قبل مرور عامين عليها وكل منهما يكره الآخر كراهية سوداء ويحتقره ويراه غادراً وغير أمين ولاشريف. ولكن بعد أن دمرا معا بيتين كانا مستقرين وينعم فيهما الأبناء بالأمان والهدوء.. فحسبى الله ونعم الوكيل.. وأنا الآن ياسيدى أشعر باستقرار وراحة لم أحلم بهما من قبل ،وأحمد الله على كل شىء ،وأعتبر أن مامررت به كان اختبارا منه سبحانه وتعالى لإيمانى وصبرى فرضيت به وأرجو أن أكون قد نجحت فيه.

فلقد تعذبت كثيرا وتصورت أن الحياة بدون زوجى ووالد ابنى لن تستمر لحظة لكن فضل الله علىَّ كان عظيماً.. وأحب أن أطمئن كاتب رسالة «الموعد النهائى» الذى بكى دما وأسفا حين هجرته زوجته التى أخلص لها الحب سنوات طويلة من أجل نزوة مماثلة، وأطمئن كل المجروحين والمكلومين والمهجورين من أمثالى أن من نعم الله علينا التى لاتقدر بمال.. نعمة النسيان.. فكل شىء يولد

صغيراً ثم يكبر إلا الحزن فهو يولد كبيرا ثم يصغر ويتضاءل حتى يموت، فليتذرع الجميع بالصبر والإيمان ويعرفوا أن الله لن يتخلى عنهم وأنه سوف يعوضهم عن معاناتهم خير الجزاء كما أقول لكل أم تبيع أولادها جريا وراء أهوائها أو حبها بدعوى أنها تعيش حياتها مرة واحدة وليس من العدل أن تواصل التضحية من أجل أبنائها للنهاية وتضيع فرصتها فى السعادة مع من أحبت أقول لها ولكل أم مثلها: أعمى الله قلبك وبصيرتك.. إن التضحية تكون بالحقوق وليس بالواجبات فأية تضحية هذه التى تتحدثن عنها حين تتحدثن عن تضحياتكن من أجل الأبناء؟ إنها واجبات كل أم نحو أبنائها وليست تضحيات، والأم التى تتجرد من أمومتها من أجل الحب والعاطفة لاخير فيها فهناك سيدات فاضلات يذقن المر كؤوسا فوق كؤوس مع أزواجهن ويصبرن من أجل الأبناء فيعوضهن الله خيرا فيهم.. وكل أم تحرم أبناءها من أمومتها سوف يأتى اليوم الذى تتمنى فيه بنوتهم فلاتجدها لديهم لأنه كما تدين تدان.

وفى النهاية ياسيدى فلقد فوجئت منذ فترة قصيرة بزوجى السابق يتصل بنا ويعترف بالخطأ والخطيئة ويطلب الغفران، لكنه مايزال يشرب الخمر وما تزال هناك علاقات نسائية عابرة وبشعة فى حياته أى أن توبته ليست دينية ولاصحيحة. وأعتقد أنها مجرد أزمة يمر بها الآن ويطلب منى ومن ابنىَّ السماح ويطلب العودة.. فهل مثل هذا الرجل يؤتمن على أسرة وعلى ابنيه وأكبرهما يدرس فى كلية عملية مرموقة وأصغرهما فى الثانوية العامة؟

□ **ولكاتبة هذه الرسالة أقول:**

من الحكم المصرية القديمة يقول لنا الحكيم بتاح حُتب إن قانون السماء والأرض هو أن نتعلم عن طريق الألم والمعاناة.. فقد بدأ الناس حياتهم كالوحوش ولم يتعلموا كيف يصبحون آدميين إلا من خلال تجارب مؤلمة وطويلة!

هذا ماقاله الحكيم الفرعونى منذ حوالى ٤٦٠٠ سنة لكن آفة البعض منا هى أنهم يقبلون لأنفسهم أن يعيدوا سيرة الإنسان إلى الوراء فيرجعون حياتهم كالوحوش التى لا تتحكم فيها إلا غرائزها ولايردها عن رغباتها وأهوائها لادين ولاعرف ولا أخلاق ولاضوابط.. ثم يبررون هذه «البربرية» بأنبل المشاعر وأطهرها وهو الحب الذى ويرجعون إليه كل جرائمهم فى حق القيم والحياة. إن وحوش الغابة لاتعرف الصداقة ولا الوفاء ولا احترام الحرمات وهى على استعداد دائما وفى أية لحظة لأن تنقض على أقرب الكائنات إليها لتصرعها وتنهش لحمها إذا استشعرت الجوع أو ثارت لديها غريزة العدوان. فهل يختلف تصرفها هذا فى شىء عن تصرف من ينقض على عرض صديقه أو جاره فى أول فرصة تتاح له لينهشه بلا رادع من وفاء أو قيم أو أخلاق؟ وهل يختلف ذلك كثيرا عن قنص الوحوش الضارية بعضها لبعض فى الغابة؟ وكيف يبرر البعض لنفسه هذا الارتداد الوحشى الذى يهدد كل القيم النبيلة فى الحياة بهوى القلب القاهر الذى لاحيلة له فيه؟ إننا لاننكر هوى القلب ولاسلطانه، ولاننكر أيضاً الضعف البشرى..

لكنه كيف يقبل عاقل أيضا أن يبرر الإنسان لنفسه جرائمه فى حق الدين والأخلاق والوفاء والأبناء وشركاء العمر بهوى القلب الذى لاحيلة له فيه، كأنما قد أصبح هذا الضعف غاية فى حد ذاته، وليس عقبة فى طريق سعى الإنسان إلى الكمال، أو كأننا لسنا مطالبين بمجاهدة أنفسنا وردها عما ترغبه إذا تعارض مع سعادة الآخرين وحقوقهم علينا؟

«وإنما قيمة الإنسان همته» كما يقول لنا الإمام أبو حامد الغزالى، وهمته هذه هى التى تعينه على مغالبة أهواء النفس وعدم الانسياق وراء رغانبها وحدها دون رادع من ضمير أو من دين. لقد تأخرت كثيراً ياسيدتى فى اكتشاف علامات الخطر فى تحولات شخصية زوجك حتى استفحل الداء وتمكن منه، والكشف المبكر عن هذه العلامات والتحولات يفيد كثيرا فى رأب الصدع ومقاومة الأمراض الغازية للأجسام الصحيحة لأن اقتلاع هوى النفس فى بدايته ومحاصرته.. والبعد عن موطن الداء يسهم كثيراً فى سرعة الشفاء، كما يسهم التشخيص المبكر للأمراض الخطيرة فى زيادة احتمالات الشفاء منها.. لكن زوجك كان قد تمكن منه الداء حين اعتزمت قطع علاقتك بهذه الصديقة الغادرة، ودهمه.. «ذهول القلب» الذى ورد أن الله سبحانه وتعالى حذر منه فى التوراة.. فاختلت موازينه ومعاييره ولم يعد يبصر ولايرى، حتى لقد أصبح يرى النعمة نقمة، ويتمنى بذهول العقل والقلب معا زوالها! فكل أب يرعى أطفاله يحلم بأن يمد الله فى عمره حتى

يرى أبناءه أطول منه، لكن هذه النعمة التى تحققت لزوجك قد تحولت إلى «نقمة» يستخفى بها عن الآخرين.. ويكره أن يطلعوا عليها، وكل إنسان رشيد يسعد بزوجة محبة وفية ومخلصة حتى ولو لم يحمل لها مشاعر الحب، وأبناء ناجحين موفقين فى دراستهم حتى ليبرز أحدهم فى الثانوية العامة ويصبح من أوائلها.. لكن هذه النعمة تحولت إلى نقمة وعقبة يتمنى زوالها لكى تخلو له الساحة ويجنى ثمار الحب والسعادة مع من اختارها القلب.. فأى ذهول وأى جنون أشد من ذلك؟

لكن من ضوابط الحياة أيضاً أن تترفق بنا أحيانا، فتؤكد لنا صواب اختيارات الفضلاء من البشر لالتزاماتهم الخلقية تجاه الحياة وتضحياتهم برغائب النفس ولذائذ الحياة إذا تعارضت مع واجباتهم تجاه الآخرين، فتطلعنا من حين إلى آخر - على ما ناله من عقاب الحياة - من لم يردوا على تصرفاتهم هذه القيود التى يقبل بها راضين الأخيار من الناس فتزيد من يقينهم بأن تضحياتهم لم تذهب سدى.. وهيهات أن تضيع فى الأرض أو فى السماء وهيهات أيضا أن ينجو الآخرون من عقاب السماء إذا فاتهم فى الأرض.. أو إذا لم يكفروا عن جرائمهم بصدق الندم والاستغفار.

وفى رأيى أن العقاب القاسى الذى ناله زوجك السابق وصديقتك الغادرة لم يكن هو عقاب ضبطهما متلبسين بالجرم المشهود ولاتعرضهما للسجن والعار والفضيحة مع ما فى ذلك كله

من عقاب رادع، وإنما العقاب الأشد قسوة فى تقديرى هو «خيانة» كل منهما للآخر.. وانفصاله عنه منطويا له على مشاعر الكراهية والبغضاء والازدراء والاحتقار، بعد أن كان قد ظن أنه قد هدم أسرته وضحى بأبنائه على مذبح السعادة الأبدية، هوى القلب الذى سيتحدى الزمن ويستحق القربان الباهظ الذى أحرق دمه تحت قدميه!

إن هذا هو العقاب الأنكى والأشد من عقاب السجن والفضيحة فى تقديرى.. فلقد أسفرت الرحلة «البطولية» للخروج على القيم والأعراف والتضحية بالأعزاء والأبناء والوفاء والأهل والدين عن عبث كالعبث، وبلاأى عزاء عما ضاع من الشرف والكرامة والأمان.. فكيف كان عقاب؟

إنك تسألينني يا سيدتى فى نهاية رسالتك، هل يؤتمن مثل هذا الرجل على أسرته بعد كل ما كان منه فى حقها.. وجوابى هو أن لهجة سؤالك تحمل من معنى الاستنكار أكثر مما تحمل من معنى الاستفهام.. وهذا يعنى أنك قد حزمت أمرك على ألا تسمحى له بالعودة إليكم وألا تثقى فى صدق ندمه وتوبته خاصة مع استمراره فى الشراب والعلاقات النسائية الشائنة، ومن رأيى دائما أن التكفير عن الجريمة لابد أن يتناسب مع فداحة الجرم، إذ لايكفى أن يرتكب الإنسان فى حقنا كل الخطايا والآثام، ثم يقول لنا بلسانه - وليس بأفعاله - إنه قد ندم عليها لكى نفتح له صدورنا وقلوبنا، ونعلق على صدره الأوسمة.. وإنما ينبغى عليه أن

«يجاهد» طويلاً لاستعادة ثقتنا المفقودة فيه، كما جاهدنا نحن طويلا من قبل، لكى نستعطفه ونستبقيه ونسترضيه، وعليه أيضاً أن يثبت لنا صدق ندمه بالإقلاع عن السلوكيات الشائنة التى اكتسبها فى فترة ذهول العقل والقلب.. وأن يدخل «المطهر» فترة كافية يتطهر خلالها من كل آثامه وجرائمه فى حقنا، ويلتزم بالسلوك القويم، فإذا فعل كل ذلك، ووجدت فى نفسك بقية من رغبة أو أمل فيه، وشاركك ابناك فى هذه الرغبة وهذا الأمل، فلا بأس باجتماع الشمل مرة أخرى إذ يكون حقا قد تعلم الدرس خلال الفترة الماضية عن طريق الألم والمعاناة واستعاد طبيعته الآدمية بعد سياحة دامية فى عصر الوحشية.. أما إذا لم يفعل ولم يصدق فى ندمه ولا توبته.. فلا صفح ولا سماح ولا لوم عليك، ولاعلى ابنيك إذا أغلقتم دونه قلوبكم وصدوركم، كما أغلق هو دونكم جميعاً قلبه وصدره وباعكم جميعا بأرخص الأثمان.

أما رسالتك التحذيرية لكل من تضحى بأبنائها جريا وراء هوى القلب وحلم السعادة الشخصية فعادلة وحكيمة..

وأما رسالتك المشفقة إلى كل المهمومين والمهجورين أن اصبروا وثابروا، فلسوف يجزيكم الله عن معاناتكم أفضل الجزاء، فلك عنها ،وعن رسالتك القيمة المفيدة هذه كل الشكر وكل الثناء..

٣

النسمة الرقيقة

« ذكاؤنا الواعى تغيب عنه الحقيقة . لكن «إرادتنا الوضيعة » هى التى تغلبنا فى كثير من الأحيان ، وتميل بنا إلى حيث يميل هوى النفس » .

أعرف يا سيدى أننى من النوع الذى لا تفضله من السيدات والذى تتحامل عليه كثيرا فى ردودك لكن برغم ذلك أثق فى إخلاص نيتك وصدق مشورتك لمن يلجأ إليك، وأريد لهذا أن أروى لك قصتى، فأنا زوجة ثانية فى حياة زوج وأب لأبناء من زوجته الأولى قاربوا الآن سن الشباب.. نعم زوجة ثانية وتزوجت رجلا متزوجا وأبا وأرجوك ألا تمزق رسالتى قبل أن تقرأها للنهاية فهذه هى رابع رسالة أكتبها لك ولا تهتم بالرد عليها ربما لأنك لا تراها جديرة بالعرض والمناقشة، لكن أليست الزوجة الثانية أيضا إنسانة ولها حقوق وقلب ومشاعر كالزوجة الأولى التى تتعاطف معها دائما ضد الأخرى؟ لقد رآنى زوجى مرتين منذ ٥ سنوات خلال قيامى ببعض الأعمال ،وتقدم لى بكامل إرادته .وبدون أى إغراء أو مؤثرات من جانبى قال لى إنه قد توسم فى الطيبة والأخلاق الحميدة ويريد أن يتزوجنى، ورفضته فى البداية لأنه زوج وأب لأبناء وقلت له بالحرف الواحد: لن أقبل ولن أسمح لنفسى بأن أكون سببا فى هدم أسرته أو فى ظلم أحد لأن طلاقه لزوجته أمر حتمى سواء قبلت به زوجا أو لم أقبل، وأطال الحديث عن الأسباب التى تدعوه لذلك ـ وكلها تتعلق بطباع زوجته السيئة وإهمالها له ولبيتها ولأولاده وماديتها المفرطة.. إلخ ـ واختتم شرحه بالسبب الذى لا مجال بعده لأى كلام أو نقاش وهو أنه ـ كما قال لى ـ قد تأكد من خيانتها له بعد طول شك فى الأمر ولم يعد هناك مجال لاستمرار علاقتهما.

وعند هذا الحد من الحديث اقتنعت تماما بأن حياته مع أم أولاده قد أصبحت مستحيلة، فوافقت على الزواج منه.. وتزوجته وترقبت بعد الزواج أن يقدم على الخطوة المنتظرة كما أكد لى فى البداية ففوجئت به بعد الزواج بقليل يجيئنى قائلا إنه لن يطلق زوجته لأنها عصبية وشرسة جدا ولن تتورع عن إخراج أولاده من مدارسهم وتشريدهم فى الشوارع انتقاما منه إذا عرفت أنه سيطلقها أو أنه متزوج من غيرها.

وصدّقت ما قاله لى.. ولم أشك فى شىء منه ،ومضت الأيام بنا فلاحظت عليه فى خلال عشرتى له خوفه الحقيقى والكبير من زوجته الأولى وحرصه الشديد على مشاعرها وعلى تلبية جميع رغباتها.

وعندما تزوجته كان رزقه محدودا ويمتلك سيارة صغيرة، فاتسع رزقه وازداد دخله والحمد لله وراح ينفق عن سعة على زوجته الأولى وأولاده وأهله ويقول لى دائما إننى «بشارة الخير» فى حياته، وسعدت باتساع رزقه حتى لا أشعر بأن زواجه منى قد زاد من أعبائه المادية، لكنى لاحظت برغم ذلك أنه كلما اتسع رزقه ازداد تقتيرا علىّ وحدى.

وأثار ذلك استغرابى فرحت أرقب علاقته بزوجته الأولى وظللت طوال السنوات الماضية أحاول أن أعرف حقيقة علاقته بها فوجدته يخصص لها أفضل الأشياء دائما من الملابس إلى المآكل إلى النزهات.. وأنا بلا حقوق تقريبا وأعتمد على نفسى بالكامل فى

نفقاتى ،وتمر الشهور دون أن أحظى مرة بتناول وجبة الغداء معه كزوج وزوجة فى حين يحرص كل يوم على تناول الغداء مع زوجته الأولى وأولاده، ويقدم لها الهدايا الثمينة بمناسبة وبدون مناسبة.. ولا يقدم لى أية هدية فى مناسبة ولو كانت زوجا من الجوارب. كما يتركنى أركب سيارة الأجرة وحدى فى وقت متأخر من الليل لأعود إلى مسكنى فى حين يرفض السماح لزوجته بركوب سيارة الأجرة وحدها حتى فى ضوء النهار لأنه يخاف عليها.. مع أنى على قدر من الجمال والمظهر الجميل.

وكلما عاتبته على أنه لا يعدل بينى وبين زوجته، ويتركنى فترات طويلة جدا، يقول لى إننى «الفسحة» الوحيدة فى حياته التى تهون عليه متاعبه والنسمة الرقيقة التى ترطب جفاف حياته وتعينه على تحمل صعوباتها وإنه يتركنى واثقا من أننى لن أخونه أبدا لأننى محل ثقته واطمئنانه دائما. فأسكت وأواصل حياتى بصبر أملة أن تتغير الأحوال.. فلا تتغير وأجدنى فى النهاية بعد خمس سنوات من الزواج إنسانة وحيدة تطول فترات وحدتى وانتظارى لزوجى الغائب.. وقد بلغت حيرتى ومعاناتى قمتها حين علمت من إحدى قريباته أنه زوج سعيد مع زوجته بل إنهما زوجان أكثر من سعيدين على حد تعبيرها. ولم أطق صبرا وحين جاءنى واجهته بما عرفت.. فلم يرتبك كما توقعت ولم ينكر وإنما قال لى فى هدوء إن حياته مع زوجته مستقرة، وإن المشكلة التى كانت قائمة بينه وبينها كانت وضعا مؤقتا، وانتهى!

وصدمت حين سمعت ذلك منه «وطالبته - مادام سعيدا فى حياته مع زوجته - أن ننفصل ويذهب كل منا فى طريق مختلف، فرفض وأكد لى أننى أوفر له أكبر قدر ممكن من الهدوء والراحة النفسية، ولم يبت حتى ساعة كتابتى لهذه الرسالة فى أمر «ولم يستجب لطلبى بالانفصال أو بالعدل معى لأنى أيضا إنسانة يا سيدى وقد طالبته مرارا بأن يحدد موقفه منى وأن يطبق شرع ربه معى فى حدود ظروفه التى يقول إنها لا تسمح له بأن يعطينى من وقته ونفسه كل ما أستحقه، وأنا لا أطلب العدل المطلق ياسيدى، وإنما العدل الممكن فقط!

□ ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

خطؤك يا سيدتى أنك قبلت بالوضع الخاطىء من البداية ورحبت بزوج لأخرى وأب لأبناء منها . فإذا كنت تقولين إنه قد تقدم إليك بعد أن رآك مرتين فقط بكامل إرادته وبلا أى مبرر مقنع لقبوله أو التغاضى عن ظروفه، فلا أنت تعرفينه من قبل ويعرفك حتى تبررى لنفسك قبولك به - برغم ظروفه الخاصة - بسلطان الحب الذى لا حيلة لك فيه، ولا ظروفه كانت خافية عليك حين تقدم لك فتقولين إنها قد غابت عن تقديرك، والزواج فى النهاية مشروع يحتاج إلى طرفين لإتمامه ولهذا فمسئوليتك عن هذا الزواج كاملة ومماثلة لمسئوليته الكاملة عنه.. وكلاكما - وعفوا فى التعبير - قد خدع الآخر وخدع نفسه بنفس القدر فى هذا الزواج، فهو قد خدعك بمعزوفة التعاسة الزوجية القديمة التى يتوسل بها دائما

من يريد أن يتسلل إلى قلب أخرى ويستحوذ عليه فلا يجد وسيلة «مشروعة» لذلك سوى الافتراء على شريكة عمره والإفاضة فى الحديث عن مساوئها ومعاناته معها.. وكيف أن حياته معها محكوم عليها بالفشل سواء قبلت به «الأخرى» أو لم تقبل. وهى عملية خداع مزدوجة للطرف الآخر أى الفتاة وللنفس، فبالنسبة للفتاة فإنها توهمها بأنها ليست مسئولة عن هدم هذه الأسرة التى توشك أن تتهدم لأسباب لا علاقة لها بها.. فتتخفف بذلك من إحساسها بالذنب لمشاركتها زوجة وأما وأبناء فى شخص هو المسئول عنهم، وبالنسبة للنفس فهى خداع من الرجل لنفسه لتبرير رغباته ، وإيهامها بأنه يعيش مأساة إغريقية أليمة تبرر له أن يلتمس السبيل للنجاة منها بأية طريق ولو كان بالزواج من أخرى أو مصادقتها.

والتبرير حيلة نفسيه دفاعية معروفة يحاول بها الإنسان دائما أن يعفى نفسه من اللوم باختلاق المبررات المقنعة له لأفعاله وتصرفاته.

أما خداعك لنفسك يا سيدتى فى هذا الأمر فقد تحقق حين استندت إلى الارتياح غير الصادق إلى أنك لن تظلمى أحدا بقبولك الزواج منه لأنك قد تأكدت من استحالة استمرار حياته مع زوجته ولهذا فقد قبلت الزواج منه غير ملومة.. والحقيقة التى يجب أن تواجهى نفسك بها هى أنك لم تصدقى ذلك فى أعماق نفسك لكنك أردت فقط تصديقه لكى تتخلصى من الإحساس بالذنب تجاه

أسرته.. وليس هناك دليل على خداع النفس فى ذلك أبسط من أنه لو كان الأمر كذلك فعلا.. لطلبت منه أن يحل مشكلته الشخصية مع زوجته بعيدا عنك أو لاعتذرت نهائيا عن الارتباط به ونأيت بنفسك عن تشجيعه ضمنيا أو مباشرة على حل مشكلته مع زوجته.. لكن المأساة هى أننا كثيرا ما نقبل بالأوضاع الخاطئة، ونحن نعرف أنها خاطئة لكننا نرغب فيها بشدة لكى نشبع احتياجات إنسانية أو عاطفية لدينا ثم نميل بعد ذلك للرثاء لأنفسنا وإبراء ذمتنا من أية مسئولية عنها، ولست أجد تصويراً قريبا من الدقة لهذه الحالة أكثر صدقا مما قاله الروائى الفرنسى مارسيل بروست مع استبدال بالرغبة فى الزواج - فى حالتك - كلمة الحب فى عبارته ، فقد قال:

«إن مرض الحب، يثير فى أعماقنا صراعا بين ذكائنا الواعى و إرادتنا الوضيعة! ففى لحظات التعقل القليلة نستطيع أن نرى من نحب كما يراه الآخرون على حقيقته، وفيما عدا هذه اللحظات فنحن نعجز عن أن نراه إلا متأثرين بمشاعرنا تجاهه أو رغبتنا فيه فلا نعرف على وجه الدقة هل هو جميل أم قبيح: نبيل.. أم مخادع.. وكل ما نعرفه هو أننا فى حاجة إليه و هنا يكمن مرضنا!»

وهذا معناه أن «ذكائنا الواعى» لا تغيب عنه الحقيقة.. لكن «إرادتنا الوضيعة» تغلبنا فى كثير من الأحيان وتميل بنا إلى حيث يميل هوى النفس.

لهذا فقد أثر عن خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال ما معناه: ما ترددت قط بين واجبين.. إلا اخترت أبعدهما عن هوى نفسى!

ولهذا أيضا لا أرى مبررا مقنعا لصدمتك فى رفض زوجك لطلاق زوجته الأولى . . وإلا كنت غير صادقة مع نفسك أيضا حين قلت له فى البداية إنك لا تقبلين بأن تكونى سببا فى هدم أسرة وظلم زوجة وأولادها!

ياسيدتى لابد أن تعرفى جيدا حقيقة وضعك فى حياة زوجك وتواجهى الواقع بشجاعة أدبية ونفسية فإما أن تقبليه أو ترفضيه. أنت زوجة ثانية وسريّة فى حياة رجل متزوج وأب لأولاد يقتربون من سن الشباب، وظروف عمله وحياته الاجتماعية لا تسمح له كما فهمت - بأن يعدل بينك وبين زوجته لا العدل المطلق ولا العدل الممكن ولن يسوى بينكما فى الحقوق الخاصة أو الاجتماعية.. وهكذا فأنت بالنسبة له زوجة لبعض الوقت.. أو لأوقات الفراغ والساعات المسروقة من حياته العائلية والعملية المعلنة للجميع وهو وضع ظالم لك بكل المقاييس كإنسانة وكزوجة ثانية لها على زوجها حقوق كاملة من واجبه أن يفى لها بها مادام قد تزوجها.. ولا أرى مبررا لقبولك بحياة لا تستشعرين فيها اهتمامه ولا رعايته ولا تتمتعين معها بكفالته المادية والاجتماعية لك خاصة وإنك لم تنجبى منه.. فأنت زوجة شرعية له فى النهاية.

ومادام قد تزوجك بكامل إرادته فمن واجبه الا يقصر فى حقوقك عليه.. وإلا فالانفصال وبدء حياة جديدة مع آخر ليس مشغولا بحياة أخرى عنك أكرم لك وأفضل وأقرب إلى معنى الزواج كما أراده الله للبشر. ولا تخدعك مقولة أنك «النسمة الرقيقة التى ترطب جفاف حياته». فحتى فضل «الابتكار» فى هذه الكلمات قد عجز عنه زوجك فهى أيضا من المأثورات الشائعة التى يستخدمها دائما الرجل مع «الأخرى» لإقناعها، للاستمرار فى الظل لكنك سيدة طيبة القلب فعلا إلى حد السذاجة وإلا لما كنت قد وثقت بعهد من يرتضى لنفسه أن يطعن زوجته وأم أبنائه فى شرفها أمامك ليقنعك بالزواج منه، ثم تتواصل حياته معها بعد ذلك بلا مشكلات .. وتترامى إليك الأنباء من بعيد عن سعادته واستقرار حياته معها!

فراجعى الموقف كله على ضوء هذه الحقائق القاسية وواجهى نفسك بها بشجاعة واختارى بين القبول بوضعك الحالى مع شىء من العدل معك إذا استطاعه أو رغب فيه وبين طى الصفحة كلها بلا ندم.. والتفتح لحياة جديدة مرة أخرى.. وتذكرى دائما أنه إذا كان وضعك كزوجة ثانية لاشىء فيه من الناحية الدينية والشرعية فإن سرية زواجك تنفى هذه المشروعية ،أو تقلل منها لأن الزواج إشهار وإعلام للمجتمع بمسئولية الزوج عن زوجته، أما السرية فهى سمة العلاقات الخاصة.. لا العلاقات الزوجية المشروعة.

وشكرا..

٤

أشباح الذكرى

« الغضب الأهوج يعمى البصر والبصيرة . والغيرة وحش آخر أكثر ضراوة وتغييباً للعقل منه » .

أرجو ألا تهمل رسالتى لأننى فى حاجة ماسة إلى مشورتك، فأنا سيدة فى التاسعة والعشرين من عمرى نشأت يتيمة الأم منذ صغرى، لكنى لم أشعر والحمد لله بمرارة اليتم والحرمان من الأم، فقد تزوج أبى بعد وفاة أمى، فكانت زوجته من هؤلاء الناس الذين يعطفون على الأيتام ويتقربون إلى الله برعايتهم.. فنشأت لا أكاد أحس بأن لى أما أخرى سوى هذه الأم الطيبة التى أناديها «يا أمى» كما يفعل إخوتى ولا تفرق بيننا فى شىء فمضت حياتى فى بيت أسرتى طبيعية حتى أنهيت دراستى الجامعية وعمرى ٢١ سنة، وبعد تخرجى بأيام دعينا لحضور حفل زفاف أحد أقاربنا المقيمين بالقاهرة، فسافرنا من المدينة التى نقيم بها فى الجنوب إلى العاصمة، وحضرنا الزفاف وتعرفت خلال الحفل إلى ضابط شاب أعجبت به كأى فتاة فى سنى.. وأعجب هو بى كثيرا، فقد كنت وما أزال والحمد لله على قدر كبير من الجمال، وقد عرفت أن هذا الشاب عمره ٢٥ عاما ومن أسرة طيبة متدينة مكونة منه ومن شقيقته التي تكبره وشقيق يصغره بعام واحد وأبوين طيبين، وبعد أيام من هذا الحفل طرق باب أسرتى من يخطبنى لهذا الشاب ورحبت به..

ولم تمض أيام حتى كنا قد عقدنا قراننا على أن يتم الزفاف بعد عام، وبدأنا نتزاور وتجمعنا المناسبات المختلفة، فلاحظت أن شقيق زوجى الأصغر يتودد لى، ويحرص على تلبية طلباتى ربما أكثر مما يفعل خطيبى نفسه، حتى إنه يثور أحيانا إذا أغضبنى

شيء، وقدرت له ذلك وحرصت على معاملته باحترام واعتزاز بأخوته لزوجي ولي.

وبعد عام من القران تزوجنا وانتقلت من بيت أبي في الأقاليم إلى بيت زوجي في القاهرة وعشنا حياتنا الزوجية في هدوء وسعادة، ومضت ثلاث سنوات من الزواج ولم أحمل ولم أنجب وعوضني حب زوجي لي عن ذلك فلم أشعر بنقص في حياتي ثم شاءت إرادة الله ـ قرب نهاية العام الرابع ـ أن أشعر فجأة بجنين ينبض في أحشائي فكانت فرحة زوجي وأسرته به طاغية وفرحتي كذلك، وخلال شهور الحمل كان زوجي يسافر إلى مقر عمله بإحدى المدن الساحلية ويعود إلى بيتنا بالقاهرة كل أسبوعين أو كل أسبوع، فكان يرجع كل مرة متلهفا على أن يلاحظ نمو الجنين وبروز حملي.. إلى أن حانت ساعة الولادة وهو غائب عنا في عمله.. فوضعت ولدا جميلا.. ولم يعد زوجي لكي يراه ويهنأ به للأسف.. فلقد شاءت إرادة الله أن يلقى حتفه في حادث تصادم على الطريق وأن يأتي ابني إلى الوجود يتيما ليعيد سيرة أمه مع الحياة من جديد.

ولن أصف لك مشاعري ولا معاناتي خلال هذه الفترة العصيبة من حياتي، فلقد كانت فترة حالكة السواد والظلمة ولا أريد أن أستعيدها أو أتذكرها، وقد شعرت بعد انقضاء أيام العزاء بأنه لم يعد لي شيء في البيت الذي أعيش به.. فبدأت أستعد للعودة إلى بيت أبي، فإذا بأم زوجي ووالده يرفضان بإصرار خروجي من

البيت ويطلبان مني البقاء معهما ،ويقولان لي إن وجودي بينهما مع مولودي سوف يعوضهما عن فقدانهما لزوجي ويخفف عنهما بعض أحزانهما.. واستجبت لرغبتهما راضية ،وأقمت مع أسرة زوجي بعد الرحيل.. فكان ابني دائما موضع حب ورعاية جدّه وجدته وعمه.. وخاصة عمه الشاب الذي كان شديد الاهتمام به وبي أيضا..

وبعد رحيل زوجي عن الحياة بخمسة شهور فاتحني فجأة شقيقه الأصغر برغبته في الزواج مني فرفضت على الفور واعتذرت له عن عدم قدرتي على تقبل الفكرة بسبب الظروف المحرجة والمؤلمة التي تحيط بالموقف كله. لكني فوجئت بوالد زوجي ووالدته يتحدثان معي طويلا ،ويحاولان إقناعي بالزواج من ابنهما الأصغر بعد أن شاءت إرادة الله أن يرحل أخوه الأكبر عن الحياة ويؤكدان لي أن في ذلك ضمانا لابني الوليد الا يشعر باليتم وألا يتعرض لما أكرهه له إذا ما تزوجت رجلا آخر ذات يوم.. وشعرت بحرج بقائي بعد هذا الحديث مع أسرة زوجي فأستأذنت صهري في العودة للإقامة مع أبي.. وعدت إلى بيت أسرتي فإذا بأبي أكثر حماسا لزواجي من عم طفلي من أبويه وراح يقنعني بأنني لن أستطيع مواجهة الحياة للأبد كأرملة شابة صغيرة وجميلة لأن العيون تحيط دائما بمن كانت في مثل ظروفي ولابد لي من الزواج ذات يوم وما دام الأمر كذلك فإني لن أجد لطفلي أبا أفضل من عمه.. وفكرت في الأمر طويلا ثم سلمت في النهاية بالفكرة ،وقبلت

بها نفسيا ،وتم الزواج بلا احتفالات.. وعُدت مرة أخرى إلى القاهرة ولكن زوجة للشقيق الأصغر لزوجى الراحل ومعى وليدى الصغير، وفى ليلة الزفاف عاملنى زوجى بنبل وكرم لن أنساهما له مدى الحياة فقد قال لى إنه يدرك جيدا حساسية الظروف ولهذا لن يفرض نفسه علىَّ أبدا، بل يكفيه منى فى البداية أن أكون زوجته أمام الناس ،وأن أهتم بشئونه وأعتنى بملابسه.. وأعدَّ له طعامه بيدى وفى ذلك الكفاية بالنسبة له إلى أن أوافق وأستعد نفسيا لأن يكون زوجا كاملا لى وسأجده حين يتحقق ذلك فى الانتظار، ثم أمضى ليلة الزفاف فى حجرة أخرى فازددت احتراما له بل وازددت رغبة فى أن أتجاوز حرج الظروف لكى أصبح زوجة كاملة له فى أقرب وقت ممكن. وبعد ثلاثة شهور تخلصت من حرجى وأصبحنا زوجين كاملين والحمد لله.. ولم تمض أسابيع حتى شعرت بالحمل وبدأت أستعد لاستقبال ثمرة حب جديدة وخلال شهور حملى كان زوجى يهتم بابنى ويرعاه أكثر مما أفعل أنا معه، فكان يخرج معه ويدلله ويجلسه على ركبته ويلبى طلباته، فأسعدنى ذلك كثيرا ،وحمدت الله على هذا الزوج العطوف الحنون معى ومع ابنى. ثم جاء موعد الولادة ووضعت طفلة جميلة سعد بها زوجى كثيرا ،وسعدت بها أكثر.. وواصلنا حياتنا فى سلام بضعة شهور بعد الولادة، إلى أن كنت نائمة إلى جوار طفلتى الوليدة ذات ليلة فسمعت بكاء طفلى فى فراشه بالغرفة الأخرى، ونهضت بتلقائية وذهبت إليه ورقدت إلى جواره ورحت أهدهده

وأطمئنه حتى يكف عن البكاء ثم نمت فى فراشه حتى الصباح، فما إن رآنى زوجى فى الصباح نائمة إلى جوار ابنى حتى جُنَّ فجأة جنونه ،وغضب غضبا شديدا لتركى طفلتى ونومى إلى جوار ابنى، واتهمنى بأنى أفضل هذا الولد على مولودتى التى تحتاج لرعايتى أكثر منه.

وفى اليوم التالى رفع يده لأول مرة ،وضرب طفلى اليتيم فى ثورة غضب بسبب تافه ثم بدأت المنازعات اليومية الغريبة بينى وبينه حول الولد والبنت وكيف أننى أهتم بالولد أكثر لأنه ابن زوجى الراحل ،وأهمل البنت لأنها ابنته ناسيا فى غمار الغضب أن الاثنين من أحشائى ودمى ونبض قلبى، لكن قاتل الله شيطان الغضب الذى يصور للإنسان ما لا ظلَّ له من الحقيقة، واستمرت المنازعات والغضب لأية لمحة غير مقصودة من جانبى تجاه طفلى أو طفلتى فيفسرها بأنى أفرق بينهما إلى أن فوجئت بزوجى يطلب منى أقصى ما كنت أتصور أن يطلبه منى ذات يوم، وهو أن أتخلى عن طفلى اليتيم ،وأودعه لدى أهلى فى الأقاليم لكى أتفرغ له ولابنتى فى مسكننا بالقاهرة.. ثم هددنى بالطلاق إن لم أستجب لطلبه.. فغضبت للطلب أشد الغضب ، واستأذنته فى العودة إلى بيت أبى إلى أن تهدأ الأحوال بيننا ويستطيع كل منا أن يناقش الأمر بهدوء مع نفسه.. وأنا الآن يا سيدى أقيم فى بيت أبى مع ابنى الذى ولد يتيما وطفلتى الصغيرة منذ أسابيع ولا أعرف ماذا أفعل بحياتى، ولا كيف أضحى بابنى الصغير المحروم.. أو لماذا أضحى به وما هى الحكمة فى هذه التضحية؟

فبماذا تنصحنى أن أفعل ؟وهل تكتب لزوجى كلمة تناشده فيها أن يكون أكثر عدلا ورحمة معى؟.

☐ ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

أصبت عين الحقيقة يا سيدتى حين قلت إنه يتهمك بالتفرقة بين طفلك وطفلتك ناسيا فى ثورة الغضب أن الاثنين من ثمار أحشائك وخلاياك ودمك! فالغضب الأهوج يعمى البصر والبصيرة حقا فى كثير من الأحيان لكن الغضب وحده ليس هو المسئول عن هذا التطور المؤسف فى علاقتك بزوجك، وإنما هناك وحش آخر أكثر ضراوة من الغضب وأكثر تغييبا للعقل منه هو الغيرة! نعم الغيرة فزوجك وبلا مواربة يغار مما يمثله هذا الطفل البرىء فى حياتك من دلالات وذكريات عاطفية سابقة.. ومما يمثله من امتداد لهذه الارتباطات والدلالات فى حياتك معه! ولا يغير من الأمر هنا أن والد هذا الطفل كان شقيقه الوحيد أو أى إنسان آخر فمع مشاعر الغيرة لا يفرق المرء بين غريب وقريب وإنما يغار ويستسلم لمشاعر الغيرة وشكوكها كلما تملكته مشاعر الخوف من أن يفقد من يحبه ،أو مشاعر الشك فى أنه لم يتملك مشاعره وأن هناك من يستأثر ببعض أو كل هذه المشاعر دونه حتى لو كان قد رحل عن الحياة.

والغيرة - كما يقول لنا عالم النفس الأمريكى كولز- عارض من

أعراض الخوف وعدم الشعور بالاطمئنان وهى وحش يلد نفسه بنفسه أى بغير حاجة إلى أسباب موضوعية لميلاده كما يقول لنا شاعر الإنجليزية شكسبير فى رائعته «عطيل».

والاعتراف بمعاناة هذه المشاعر المؤلمة بلا خجل هو بداية التعامل الصحيح معها. وفى تصورى أن زوجك الحالى قد أعجب بك ،وانطوى لك على مشاعر الاعتزاز بشخصك والرغبة فيك منذ رآك وتعامل معك فى الأيام الأولى من ارتباطك بشقيقه الأكبر لكنه قد سما بمشاعره هذه تجاهك إلى مرتبة الاحترام والاهتمام البرىء بشئونك والغضب لغضبك، وكان من الممكن أن تتجمد هذه المشاعر عند هذه الحدود لولا أن شاءت الأقدار بعد ذلك أن يرحل زوجك الأول عن الحياة فتسمح له الظروف بالاقتران بك ،وتعبر مشاعره الكامنة إتجاهك عن نفسها التعبير الصريح لكن هدوء الحياة لم يستمر طويلا بينكما لأن «الوحش» القديم قد أطل برأسه ورأى فى اهتمامك الطبيعى بطفلك اليتيم ما أثار مشاعر الغيرة فى قلبه ،وجدد لديه شكوكه فى أنه لم يتملك بعد كل مشاعرك لأن نصيبا منها ما يزال يحوم حول ذكريات الماضى. وهو إحساس خاطىء بالتأكيد لكن الغيرة لا عقل لها أيضا ولا منطق يا سيدتى ؛كما لا تفرق أيضا بين الأحياء وأشباح الذكريات.

ولقد كان زوجك حكيما نبيلا معك حتى ترفق بك فى بداية زواجكما ولم يتعجل دفع الأمور حين تهيأت أنت نفسيا لتجاوز حرج الظروف وأداء دور الزوجة الكاملة فى حياته كما كان أيضا عطوفا وحنونا مع ابنك وابن شقيقه الوحيد فماذا غير من مشاعره

فجأة تجاهه؟.

هل أسرفت لاشعوريا فى الاهتمام بطفلك على حساب أخته الوليدة تأثرا بالظروف المأساوية التى أحاطت بمولده وإدراكا منك أنه إنما يكرر يتمه المبكر سيرتك الأولى فى رحلة الحياة؟.

أغلب الظن أن هذا ما قد حدث بغير قصد منك فنبه مشاعر الغيرة المؤلمة فى قلب زوجك تجاه ذكرى الرجل الأول فى حياتك بغض النظر عن أن هذا الرجل كان شقيقه ففسر اهتمامك بابنك بأنه امتداد لاعتزازك بأبيه. مع أن الأقرب للمنطق والعقل هو أن يفسره بعطف الأمهات التقليدى على من قست عليهم بغير ذنب ظروف الحياة فحرمتهم من آبائهم قبل أن يخرجوا إلى ضياء الدنيا .وهبك حتى قد فعلت ذلك لاشعوريا وبغير قصد فلماذا لم يصبر عليه زوجك ويتفهمه فى ضوء الظروف غير الطبيعية التى أحاطت بمولد هذا الطفل البرىء إلى أن يداوى الزمن كل الجراح وتستقيم الحياة فى عشكما؟.

إن نصيحتى لزوجك هى أن يواجه نفسه بشجاعة أدبية ،وأن يعرف أن إحساس الغيرة إحساس إنسانى لا يكاد ينجو منه أحد وليس فيه ما يثير الخجل ثم أن يناقش مع نفسه وبالحوار العقلانى الهادىء أسباب غيرته مما يمثله هذا الطفل فى حياة زوجته ويقومها التقويم الصحيح لها واحدا بعد الآخر ثم يردد بعد تفنيده لكل سبب كما ينصح د. كولز. بعد المناقشة الذاتية أن هذا

الشك الذى يساورنى لا أساس له من الواقع مرات ومرات إلى أن يفرغ من تقويم كل الأسباب ومناقشة دلالاتها فتستبين له الحقيقة ويطمئن إلى أنه يملك مشاعر زوجته خالصة الآن وإلى أن الحاضر أقوى تأثيرا من أشباح الماضى، أما الطفل البرىء الذى يطالبك زوجك بالتخلى عنه فإنى أطالبه بالتنازل عن هذا المطلب اللاإنسانى.. ليس فقط لأنه ليس من الرحمة أو العدل أن يخير زوجته بينه وبين فلذة كبدها، ولا لأن هذا الطفل بالذات هو ابن شقيقه الوحيد الذى كان الظن أنه سيكون له أرحم الآباء وأكثرهم عطفا عليه ولا لأن هذا الطفل بالذات قد كان المبرر الوحيد المقبول لدى الجميع لكى يجتمع شمله بمن أعجب بها وتمناها لنفسه منذ رآها وإنما لسبب إضافى آخر هو أنه يجرم فى حق ابنته الوليدة بحرمانها من أن تنشأ مع أخ أكبر لها يتبادلان معا الحب والعطف ويتساندان فى الحياة حين يكبران ويكون لها هذا الأخ المرفوض السند والحماية فى مواجهة شدائد الدنيا فقولى له كل ذلك يا سيدتى، وأعينيه على التخلص من شكوكه فى امتلاكه لقلبك بزيادة عطائك العاطفى له وبغمره بحبك ومشاعرك الدافقة التى تشعره بأنه فتاك الأوحد الذى لا يشغل خيالك ووجدانك سواه ،وزيدى من اهتمامك بطفلتك منه إلى حد المبالغة أيضا حتى يطمئن قلبه تماما إلى اعتزازك به وبطفلتك منه بنفس القدر الذى تعتزين فيه بطفلك الأكبر لكن لا تتخلى مع كل ذلك عن طفلك فى النهاية ،واطلبى منه أن يعفيك من الاختيار المؤلم الذى لا يقره شرع ولا دين ولا رحمة

واصبرى عليه إلى أن تهدأ نفسه ،ويستشعر حبك الصادق له ورغبتك الأكيدة فى أن ينشأ طفلاك معا فى حياة واحدة مشتركة يتبادل فيها الجميع الحب والمسئولية ،وثابرى على رجائك له بألا يحرم ابنته من أخيها فإذا قدمت له كل القرابين على مذبح الحب والوفاء ثم تمسك بعد كل ذلك بمطلبه القاسي هذا، فلن يكون ذلك سوى دليل على أحد أمرين لا ثالث لهما هما إما: أنانيته الشديدة ورغبته فى الاستئثار بك لنفسه وطفلته دون طفلك، وهو للأسف ابن شقيقه الراحل، فكأنما قد فقد بذلك أهم مبررات قبوله كزوج لك وهو أن يرعى ابن أخيه المرحوم وتخلى عن واجبه العائلى والإنسانى تجاهه مما يثير شكوكا كثيفة حول قيمة ومدى وفائه بعهوده والتزاماته.. وإما عجزه عن أن يتخلص من وحش الغيرة الذى ينهش صدره تجاه أشباح الذكريات حتى ولو كانت متعلقة بذكرى شقيقه الوحيد وفى كلتا الحالتين فلن يكون الاستمرار هو الخيار الأمثل، وسوف يكون من الأفضل لكل منكما أن يبحث لنفسه عن أمانها وسعادتها فى اتجاه آخر!.

٥

الفراغ المشحون!

« إن من أهم أسباب شقاء الانسان أن يثبِّت عينيه على ما ينقصه وحده ، ويتعذب بتطلعه إليه : فيغفل عما أتيح له من أسباب كثيرة للسعادة . وكلما تحققت له رغبة تعذَّب بغيرها ».

أنا سيدة فى الثانية والثلاثين من عمرى تخرجت فى جامعة القاهرة ،ونشأت فى أسرة صالحة متدينة ،وتشربت منذ صغرى حب أبوى وأخوتى وأقاربى وأهلى وصديقاتى والناس أجمعين.

وقد قرأت فى بابك رسائل عديدة لزوجات يشكون من عدم الإنجاب ،ويُسهبن فى وصف مشاعرهن الحزينة وما يسببه لهن هذا الحرمان من آلام نفسية دائمة ومستمرة، وكانت آخر هذه الرسائل رسالة «الكراسى» التى تتكلم فيها زوجة شابة محرومة من الإنجاب مع الكراسى فى شقتها الواسعة ،وتفكر فى ترك الشقة الكبيرة إلى أخرى صغيرة لأنها تذكرها بحرمانها من الأطفال الذين حلمت بأن يملأوا أرجاءها الخالية، ولن أسدى نصائحى إلى هؤلاء الشاكين والشاكيات، فمن المؤكد أنهم يعرفون كل النصائح المناسبة للموقف، لكنى سأروى لهم تجربتى الشخصية. فلقد تزوجت منذ ثمانى سنوات من زوج كريم عطوف وعلى خلق فاضلة، وقبل الزواج لم أكن أتخيل نفسى بعد أن أستقر فى بيت الزوجية إلا وحولى أطفالى. ثم تزوجت زوجى الحبيب وأحببته وأحببت حياتى معه وأحببت شقتى وأثاثى وكل أمور حياتنا الصغيرة والكبيرة مع أننا قد واجهنا فى بداية حياتنا معا صعوبات ومشكلات عديدة بسبب بُعد سكننا الأول فى أطراف العاصمة مع عدم وجود سيارة أو تليفون فضلا عن عدم وجود مياه ومجار فى هذا السكن البعيد، لكن حب كل منا للآخر ذلل كل الصعاب فمضت وأصبحت ذكرى دون أن تترك فى نفسينا أى

مرارة أو ألم، وانتقلنا فيما بعد إلى مسكن جميل وواسع وتحققت معظم أهدافنا فى الحياة، أما من حيث الإنجاب فلم ننجب أطفالا، وليس المهم أن أقول لك من منا السبب فى عدم الإنجاب لكن المهم هو أن أروى لك كيف عالجنا هذا الأمر، فأنا وزوجى نحب الأطفال ومشاعرنا تجاههم طبيعية.. لكن احترامنا لقضاء الله أشدّ وأكبر ومشاعرى تجاه هذا الأمر ليست فى حقيقتها مشاعر الصبر، إذ أنى لا أشعر بأى ألم لكى أصبر عليه وأحتمله، فنعم الله علىّ لا تُعد ولا تحصى وليس من العقل أن أتوقف أمام نعمة واحدة لم أحصل عليها لحكمة لا يعلمها إلا الله ثم أشحن نفسى هماً وغماً وحزنا على أنى لم أنلها، كما أنى لا أعزّى نفسى عن عدم نوالها بقولى لعل الله لم يرزقنى بأطفال ليدرأ عنى شراً أو ألما كان ينتظرنى لو رزقت بهم، وإنما أقول فقط إننى على يقين كامل من أن الله سبحانه وتعالى لم يقدّر لى سوى الخير وهو بيده الخير وله الأمر كله من قبل ومن بعد ويخلق ما يشاء حين يشاء، وفى النهاية يا سيدى فإن هبة الأبناء كهبة المال أو السلطان أو الصحة أو النفوذ ، إنما هى فتنة وابتلاء واختبار وليست متعة أو تسلية، والله سبحانه وتعالى لم يهب الآباء أبناءهم ليكونوا متعة أو تسلية لهم وإنما ليؤدوا معهم رسالة شاقة وطويلة لتربيتهم التربية الصالحة، ولهذا فهم أمانة ثقيلة فى حاجة إلى جهد متصل وعمل دءوب لأدائها على خير وجه حتى يكونوا سببا فى تقريب آبائهم

من الجنة وليس فى إبعادهم عنها، ومشاعرى الحقيقية تجاه هذا الأمر هى أننى أرى أنه من الحمق أن أدعو أن يبتلينى «بفتنة» سواء كانت المال أو البنون أو غيرهما لأنى لا أعلم إذا ما كنت سوف أنجح فى الاختبار فأدخل الجنة أم أفشل فأدخل النار والعياذ بالله؟ وإنما أدعو الله دائما أن يرزقنى الخير كيفما يراه لى وأن يرضينى به.

لهذا كله فحياتى مليئة تماما بما يشغلنى ويمتعنى بالرغم من عدم الإنجاب وليس لدىّ فراغ نفسى أو عاطفى أو زمنى، حتى أنى كنت أعمل بجهاز معروف فاستقلت منه منذ نحو ثلاث سنوات لأنى لا أجد نفسى ولا أحس بالرضا إلا وأنا فى البيت.. وعمل المرأة خارج بيتها لا يكون إلا لضرورة تقدرها وأنا لا ضرورة لدى للعمل خارج بيتى. أما فى داخله فكل أدائى فى خدمة بيتى وزوجى أعتبره من جهاد المرأة الذى أبتغى فيه الأجر من الله، ومهام بيتى ورعاية زوجى تستغرقان منى الكثير من الوقت والجهد، ثم تتسع دائرتى بعد ذلك لتشمل أبوى وأخوتى وأقاربى وصديقاتى، ثم محاولتى بعد ذلك حفظ القرآن الكريم وتحسين عبادتى، وكل ذلك يشغل وقتى ولا يدع لى فراغا لأفكر فيما لم يعطه لى الله بل إنى فى الحقيقة لا أستطيع أن أوفى ربى واجب الشكر كاملا على ما أعطاه لى من نعم وهو كثير كثير، ولله الحمد والشكر والثناء الجميل.

☐ ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

حين حدد المهتمون بالدراسات الاجتماعية والنفسية أسس الزواج المثالى فى تقديرهم أشاروا إلى ضرورة أن تتحقق له بعض الشروط المهمة من بينها: حسن اختيار الشريك، وسلوك الزوجين سلوكا نفسيا حسنا أحدهما تجاه الآخر، وكلاهما تجاه الحياة بوجه عام وتوافر حياة حسية قوية ومنسجمة بينهما. ولم يكن من هذه الشروط إنجاب الأطفال أو عدم إنجابهم، وإنما كان من بينها ضرورة حل مشكلة الأبوة والأمومة بطريقة ترضى الطرفين معا وتلبى احتياجاتهما النفسية والإنسانية معا بقدر متساو أو متقارب.

فليس الإنجاب فى حد ذاته هو الذى يضمن السعادة فى الزواج أو فى الحياة، إنما «الحل المرضى» بالنسبة للطرفين لمشكلته هو الذى يسهم فى نجاح الحياة الزوجية وفى سعادة الإنسان، فقد يسعد زوجان بالإنجاب وقد يرى آخران سعادتهما فى تأجيله.. وقد يكون الإنجاب سببا لفشل الحياة الزوجية فى بعض الأحيان، وهذا يعنى أن «الرضا» بالحل المتاح أو الممكن للمشكلة هو الذى يحقق قبولنا له.. وليس مضمون الحل نفسه.

والإنسان معذب منذ قديم الزمان يا سيدتى برغباته وتطلعه المحموم لكل ما يحقق له السعادة فى مثلها الأعلى.

والطبيعة الإنسانية تقوم أساسا على الرغبات المتجددة وغير

المحدودة، وكلما تحققت للإنسان رغبة تعذب بغيرها وسعى وراءها، لهذا قيل بحق إن «الرجاء عبد رقيق» لأن الرجاء يجعل الإنسان عبدا لرغباته وأمنياته، وكلما عز المطلوب زاد شقاء الإنسان به، ومن آفات الإنسان أن ينشغل دائما بما يتطلع إليه عما أتيح له من أسباب فقدت قيمتها فى نظره بالألفة والاعتياد وتركزت آماله على غيرها، لهذا أجاب الحكيم الذى سئل: ما الذى ترغب فيه؟ قائلا: أرغب فى ألا أرغب فى شىء! أملا أن يتحرر بذلك من ذل الرغبة فى الأشياء والأسباب التى لا حد لها ولا نهاية.. ولا راحة للقلب المتطلع إليها إلا مع أنفاسه الأخيرة.

والإنسان مطالب دائما بتعديل آرائه ورغباته بما يتوافق مع ظروف الواقع وإمكاناته.. فيتخلى عن الرغائب التى تعذر عليه تحقيقها..

ولو كان لم يتصور لنفسه من قبل حياة إلا بها ويتقبل من ظروف الحياة ما لم يكن يتخيل أنه يستطيع من قبل أن يتوافق معها ويقبل بها، ولا يكتفى بذلك وإنما يستكشف أيضا فى كل حال جمالها ويستمتع به، وفى الحياة دائما متع كثيرة حسية ووجدانية وإيمانية تلبى احتياجات الإنسان وتشبع تطلعه الأزلى إلى السعادة، إذا استكشف جمالها ورضى بها.

وقد توصلت أنت يا سيدتى - بفطرتك الحكيمة - إلى أن من أهم أسباب شقاء الإنسان أن يثبت عينيه على ما ينقصه وحده ويتعذب

يتطلعه إليه فيغفل عما أتيح له من أسباب أخرى عديدة للسعادة.

وإذا كان تعديل الآراء والرغبات بما يتوافق مع ظروف الواقع وما أتيح لنا فيه من قدرات وأسباب ليس سهلا إلا على أصحاب القلوب الحكيمة، فهو فى النهاية ليس بمستحيل، وقديما قال لنا جمال الدين الأفغانى: «إن من ترك شيئا عاش بدونه». والحياة فى النهاية - يا سيدتى - كالسياسة هى: «فن الممكن».. وفن التوافق معه والرضا به، ولا شىء يعين الإنسان على كل ذلك أكثر من الإيمان بالله والتسليم المطلق بإرادته التى لم ترد لنا إلا خيرا.. والرضا بكل ما تحمله لنا أمواج الحياة.. و الاستمسال الدائم بالأمل فى الله والتطلع إلى رحمته وعفوه.

.. وأنت يا سيدتى قد ألقيت علينا درسا بليغا فى كل ذلك فشكرا لك.

٦

أحزان الخريف!

« من الإنصاف أن نضع سعادة الآخرين فى إعتبارنا ونحن نطلب سعادتنا ، وألا ننسى حقوق الآخرين علينا ونحن نطلب حقوقنا » .

أتابع مشكلات قرائك وهمومك، وأقرأ ردودك التى تضع الأمور فى نصابها السليم وأحتفظ بها فى ملف لدى، والآن جاء دورى لأن أحتاج إلى مشورتك فى مشكلة قد لا ترقى إلى مستوى المآسى التى تعرضها فى بريدك لكنها بالنسبة لمن كان فى مثل سنى لا تخلو من قسوة، فأنا رجل كنت مديرا عاما بإحدى الهيئات وعندما بلغت الخامسة والخمسين قدمت استقالتى وخرجت إلى المعاش المبكر بإرادتى واختيارى حتى لا أخرج إليه مكتئبا وأنا فى الستين. وباشرت عملى بمهنتى الحرة بهدوء ورفق وليس بإرهاق.

وقد تزوجت فى شبابى المبكر وسارت بى وبزوجتى سفينة الأيام ونحن متعاونان ندير دفة حياتنا بحب وتضحية لكى يصل أبناؤنا إلى بر الأمان.

وكانت زوجتى ـ والحمد لله ـ فاضلة متدينة تعرف واجباتها كربة بيت وزوجة وأم، وقد رزقنا الله بابن وبنتين أحسنا تربيتهم وأكملوا دراساتهم وعملوا وتزوجوا، والآن أنظر إلى حياتى الحالية فماذا أرى ياسيدى؟ لقد تخرج الابن الوحيد طبيبا وتزوج ممن أحبها ولم ينجب حتى الآن بعد سنوات من زواجه وقد تراضى مع أقداره وقبلها ويقول عن ذلك: «إذا كان السبب يرجع لزوجتى فما ذنبها فى ذلك ولو كان الأمر بيدها لأنجبت لى عشرة أطفال.. وكيف أعترض على إرادة الله الذى لم يشأ أن يكون لى أطفال.. ثم ماذا فعل كثير من الأبناء لآبائهم وأمهاتهم وأنا واحد منهم؟.. إذ

ماذا قدمت لأبى الذى أفنى حياته لأصل إلى وضعى الحالى، سوى بعض المجاملات فى المناسبات المتباعدة كما أنى أعيش بعيدا عنه فى الدولة التى أعمل بها منذ سنوات»؟.

وقد وافقته على وجهة نظره فى ذلك بعد أن كنت فى البداية أنظر إلى المسألة نظرة أخرى - كأى أب يتمنى أن يرى أحفادا له من ابنه الوحيد - ثم اقتنعت والحمد لله مع ابنى بأن الرضا بإرادة الله أفضل كثيرا من هدم أسرة صغيرة لحساب أمل لا يعلم إلا الله إذا كان سيتحقق أم لا.. وهل سيسعد به من يحققه أو لن يسعد.

أما ابنتى الكبرى فقد تخرجت فى كلية التربية وتزوجت وأنجبت وعملت فترة ثم استقالت وتفرغت لتربية أطفالها.. واستقرت مع زوجها فى نفس البلد العربى الذى يعمل به شقيقها، وقد توقفت منذ فترة عن إرسال أية خطابات لى حتى التهنئة فى المناسبات المختلفة لانشغالها بمسئوليات الأبناء وبزوجها الذى لا يقدم لها أية مساعدة فى ذلك لانشغاله بمهام كثيرة..

أما الابنة الصغرى فقد تخرجت أيضا وتزوجت ورفضت الإنجاب باختيارها وبالاتفاق مع زوجها مع أنهما من الناحية الصحية على مايرام وهى تقيم مع زوجها فى نفس البلد الذى يقيم فيها شقيقها الأكبر وشقيقتها.

وهكذا اجتمع الأبناء الثلاثة فى بلد عربى واحد ومكان واحد

بعيدا عنى ،وعن أمهم منذ سنوات عديدة. وقد زارتهم أمهم عدة مرات، فلاحظت منذ سنوات قليلة بوادر تغيير كبير فى شخصية زوجتى وفى معاملتها لى خاصة بعد عودتها من كل زيارة.. وفسرت ذلك فى حينه بأنه من أثر حبها الزائد لأبنائها وافتقادهم ، وقدرت أنها فترة مؤقتة وتنقضى كما انقضت فترات مماثلة، لكن الأمور تصاعدت منذ فترة حتى فوجئت بها تطالبنى بصراحة بأن نقيم مع أولادها فى ذلك البلد العربى إقامة دائمة.. وتخيرنى بين ذلك وبين الطلاق!

وصُدمت بما طالبتنى به وتناقشت معها فى ذلك طويلا ،وذكرت لها من أسباب رفضى لأن أهاجر معها إلى هذا البلد أنه لا عمل لى فيه، وأننى فى حالة صحية جيدة بل ممتازة والحمد لله ولهذا لا أقبل أن أترك لابنى وزوجته ،أو لابنتىّ وزوجيهما أن يقوموا بإعالتنا هناك، فضلا عن أن وضعى فى بلدى مريح وأحمد الله عليه، فلماذا أتركه وأترك بلدى لأعيش مع زوجتى عالة على أبنائها وزوجاتهم أو أزواجهم؟ ولم تقتنع بكل ذلك ،وتكررت المناقشات وبدأت تنتابها الثورة والعصبية وحالات الإغماء وارتفاع ضغط الدم والبكاء والاكتئاب، فضلا عن إرهاق ميزانيتى بفاتورة ثقيلة للمكالمات التليفونية الطويلة مع أبنائها وأحفادها يوما بعد يوم.

وخوفا على صحتها من الانهيار تركت لها حرية السفر لهم فى أى وقت والإقامة معهم لفترة مؤقتة حتى ترتوى.. أو «تشبع منهم» على حد قولها.

وسافرت زوجتى واطمئنت على أولادها وسعدت بالقرب منهم وارتوت من محبتهم.. وانتظرت أنا أن تعود لتخفف عنى وحدتى الموحشة فى خريف العمر.. فإذا بها لا ترجع!

خاطبتها تليفونيا ورجوتها العودة.. بلا فائدة.. خاطبت أولادى وكتبت إليهم وطلبت منهم أن يقنعوها بالرجوع ولكن بلا نتيجة.. خاطبها الأهل والأقارب ولم تستجب لوساطة أحد أو لنصحه.

وتألمت لسلبية أولادى من هذا الأمر فعاتبتهم عتابا مريرا فى ذلك فكانت حجتهم: أنت أبونا.. وهى أمنا.. فماذا نفعل بينكما.. هل نضعها فى صندوق ونرسلها إليك؟!

وحين أحست زوجتى بشدة الضغوط عليها لكى ترجع طلبت الطلاق لتقطع الصلة بيننا ولا يعود لى الحق فى مطالبتها بالعودة. ورفضت الطلاق بالطبع بعد عشرة السنين الطويلة التى تقترب من الأربعين، ونحن فى خريف العمر، وحين يئست من موافقتى عليه قالت لى: «إذن تزوج إن كنت تريد من تؤنس وحدتك وتخدمك».

وأيّدها الأولاد فى ذلك فيما بعد ،وقالوا لى إنهم بذلوا معها ما يستطيعون ولكن بلين ورفق حتى لا تظن أنهم لا يريدونها معهم وإن كل المحاولات قد فشلت ولهذا فهم ينصحوننى أيضا بالزواج وقال لى أحدهم: يا أبى هذا حقك ونحن موافقون وراضون بأن تتزوج مادامت أمنا لن تعود إلى مصر مرة أخرى!

لكن زوجتى لم تكتف برفض العودة فقط وإنما منعت أيضا

أولادى من قضاء إجازاتهم فى مصر كما كانوا يفعلون حتى لا تضطر للعودة معهم، وتتكرر المناقشات والانفعالات التى تؤثر على صحتها ،وقد لاحظت - بأسى - أن زوج ابنتى الكبرى الذى تقيم لديه زوجتى مع أننى أحبه ونتبادل الاحترام منذ عرفناه - قد التزم الصمت عن «الإفتاء» فى حكم الدين فى تصرف زوجتى مع أنه مريض بداء الإفتاء فى كل شىء ولو كان تافها ويسند كل فتاويه إلى «قال الرسول» - صلى الله عليه وسلم - «وقال الصحابة» وبالرغم من أن عمله كمحاسب بعيد عن مجال الفتوى، لكنه لم يتحفنا هذه المرة بأية «فتوى» عن حكم الزوجة التى تترك زوجا وحيدا مثلى للمعاناة والوحشة والسأم وتهرب من إبداء الرأى فى ذلك، ربما لأن مصلحته فى بقائها هناك لخدمة الابنة الكبرى الضعيفة المدللة وخدمة الأحفاد الأعزاء، بدلا من تشغيل أجنبية من الفلبين أو سيريلانكا!.

أما عن نفسى فلا تسلنى كيف مضت بى الأيام طوال السنوات الثلاث العجاف التى مضت على سفر زوجتى إلى أبنائها بلا عودة حتى الآن فلقد خيمت الكآبة والوحشة على حياتى، وتوقفت عن عملى لشعورى بالاختناق لغدر أقرب الناس إلىّ بى، وأمضيت السنوات الثلاث الأخيرة أتنقل بين سكنى فى القاهرة وسكنى بالإسكندرية وأسافر لقضاء بضعة أيام فى الزقازيق أو فى بورسعيد لأملأ فراغ حياتى بالجلوس فى القطارات المزدحمة وسيارات الأجرة التى تسير بين المزارع والصحراء لأرقب الناس

والأشياء بعد أن وجدت نفسى - وأنا الذى اعتاد الحياة الأسرية قرابة أربعين عاما - فى وحدة مميتة بلا زوجة ولا أولاد ولا أحفاد ولا رعاية من أحد!.

فبماذا تشير علىَّ يا سيدى؟ وبماذا تنصحنى أن أفعل بعد كل ما فعلت؟

□ ولكاتب هذه الرسالة أقول:

يخيل إلىَّ أن ما قالته بطلة إحدى قصص الأديب الفرنسى جى دى موباسان من أنه يبدو أن السعادة فى الأرض لا تواتينا غالبا إلا فى الأحلام، صحيح إلى حد كبير فى بعض الأحيان، وقصتك مثال لذلك، فحين تنتهى مسئوليات الإنسان فى الحياة ويتهيأ لأن يعيش إلى جوار شريكة الحياة حياة هادئة آمنة فيفاجأ بأنه قد كتبت عليه الوحدة والسأم والفراغ برغم وجود رفيق عمره على قيد الحياة أمر قاس حقا ومخيب للآمال.

وهو أيضا جائزة غير عادلة للأب الذى أخلص فى عطائه لأبنائه.. فإذا كانت الظروف قد اقتضت أن تستقر حياة الأبناء بعيدا عنه.. فلقد كان الأمل والعزاء فى شريكة العمر.. أما أن تتحالف الشريكة هى أيضا مع ظروف الحياة عليه، وتهجره لتعيش مع أبنائها فى الغربة فهذا بلاء مضاعف يزيد من وطأة إحساسك بالوحدة والألم.

والكارثة يا سيدى هى أن ما يسعد الآخرين قد يشقينا وما

يسعدنا قد يشقيهم فى بعض الأحيان كما هو الحال فى قصتك، فزوجتك قد وجدت سعادتها فى الاستقرار إلى جوار أبنائها الثلاثة.. وهذه «السعادة» نفسها هى مصدر شقائك الآن، وسبب وحدتك ومعاناتك، لهذا فمن الإنصاف دائما أن نضع سعادة الآخرين فى اعتبارنا ونحن نطلب سعادتنا وألا ننسى حقوق الآخرين علينا ونحن نطلب حقوقنا ونلح عليها.

ولو أنصفت زوجتك لما اختارت الهجرة الأبدية والبعد النهائى عنك لكى تحظى بالعيش مع أبنائها.. ولحرصت على العدل معك بغير أن تتنازل عن رغبتها فى الحياة إلى جوار أبنائها.

ولم يكن تحقيق ذلك صعبا ولا مستحيلا لو شاءت، إذ كان يكفى تماما أن تسافر إلى أبنائها فى إجازة طويلة لثلاثة أو أربعة شهور مثلا كل عام لترتوى منهم ثم تعود لتصاحبك فيما بقى من رحلة الأيام، ولو أنها فعلت ذلك لاستمتعت أكثر بصحبة الأبناء ولتجددت حياتها كل حين بترقب موعد السفر، والاستعداد له وبانفعالات السعادة عند اجتماع الشمل بعد الغياب، ولكانت الإجازة السنوية تجديدا مفيدا للحياة يبعث فيها الحماس والحيوية والأمل لك ولها وللأبناء أيضا.

لكنها لم تفعل ذلك.. وأصرت على الهجرة الأبدية..

ولست فى الحقيقة أعرف دوافعها الحقيقية لهذا الاختيار غير العادل.. لكى أحكم على تصرفها حكما موضوعيا.. لكنى أعرف

منْ ناحية أخرى أن الزوجة المنصفة لا تختار أبدا صحبة أبنائها بديلا لصحبة زوجها الذى تزداد حاجته النفسية لها كلما تقدم به العمر وكبر الأبناء وانشغلوا بحياتهم عنه. كما أنها أيضا لا تتخلى عنه وتدعه للوحدة والسأم ومعاناة الإحساس بالنبذ ،وفقد الاعتبار لدى شريكة عمره، لمجرد الاستجابة لنداء حبها الزائد على الحد لأبنائها، فمعظم الأمهات يحملن لأبنائهن نفس هذه العاطفة لكنهن لا يهجرن أزواجهن ليلحقن بهم.

والمشكلة أن بعض الزوجات قد يختزن مرارات رحلة العمر كلها مع شريك الحياة فى صمت حتى إذا تهيأت لهن الظروف المواتية بعد انتهاء المسئوليات العائلية، زهدن فجأة فى صحبة شريك العمر، واحتمين بأبنائهن ،وتحجرت مشاعرهن تجاه أزواجهن كأنما لم تعد تربط بينهن وبينهم صلة... أما أزواجهن فإنهم يشترون هبة العمر الطويل للأسف بثمن بالغ الفداحة هو الوحدة.. والنبذ.. ومرارة الإحساس بالغدر.

وهذه قصة أخرى لا أريد أن أزيد من آلامك بها..

لكنى تعجبت حقا «للحل المثالى» الذى تقدمه لك بديلا عن عودتها إليك وهو أن تتزوج لكى تجد من تؤنس وحدتك وتخدمك.. نعم إنه أحد الحلول الممكنة لمشكلتك حقا، لكنه ليس بالسهولة ولا باليسر الذى تتصوره زوجتك وأبناؤك. ولست أقصد بذلك صعوبة إيجاد شريكة حياة جديدة ملائمة فى مثل سنك لأن هناك بكل

تأكيد من تتماثل ظروفها مع ظروفك ،وترحب بك، لكنى أقصد صعوبة الإقدام على تغيير الحياة.. والتوافق نفسيا من جديد مع إنسانة أخرى، تحتاج لأن تتواءم مع طباعها وأفكارها وأسلوب حياتها بعد هذا العمر الطويل من الحياة العائلية والروابط المشتركة مع إنسانة بعينها، فالزوجة ليست مجرد سيدة تشارك زوجها السكن وتلبى احتياجاته الإنسانية وترعى شئون بيته.. وإنما هى صحبة نفسية واجتماعية واعتياد وتراكمات شعورية تختلط فيها الخيوط وتتشابك حتى ليصعب فيها على الإنسان الطبيعى أن ينسلخ منها بسهولة ليبدأ من جديد مع إنسانة لم يعرفها ولم تجمع بينه وبينها أية روابط من قبل.

وبالرغم من ذلك.. فإن الإنسان مطالب على أية حال بأن يتحمل أقداره بشجاعة ولأن يقول لنفسه دائما مع الموسيقار بيتهوفن: لأغالبن الظروف القاسية دون أن أحنى لها هامتى.

.. ومادام الأمر كذلك فلا بأس بأن تنفذ «الحل» الذى تقترحه عليك زوجتك الآبقة حتى ولو لم يكن الحل المثالى ،ولا العادل فى مثل ظروفك إذ إن الوحدة الموحشة أشد خطرا على النفس من تبعات المخاطرة والتغيير فى خريف العمر.

ففكر جديا فى أن تملأ فراغ حياتك الذى تشغله الآن بركوب القطارات وسيارات الأجرة، بشريكة جديدة للحياة تشغلك حتى ولو بمشكلات عدم توافق الطباع واختلاف الرؤى بينكما، عن

اجترار مرارة الوحدة ،والإحساس بالغدر والجحود.. فهو إحساس قاتل للإنسان وهو فى عنفوان شبابه وقوته، فما بالك به بعد رحلة السنين.. والكفاح لتربية الأبناء.. وتحقيق أهداف الحياة؟

وتخفف من بعض معاناتك بإعفاء نفسك من الإحساس بالمرارة تجاه سلبية أبنائك فى هذا الأمر.. فهم لا يملكون إرغام أمهم على العودة إليك، بل ولا يملكون - مهما كانت تحبهم - أن يمنعوها من العودة إليك ولو كانت قد أرادتها.. وأصعب الأشياء هو ما يتعلق تنفيذه بإرادة الغير وليس بإرادتنا وحدنا .. والأمر كله معلق بإرادتها وحدها. لهذا فلا مسئولية لأبنائك فيه ولا على أحد حتى على زوج ابنتك.. وشكرا.

٧

الحساب الخاص!

« بعض الأثر السلبى لمنازعات الأبوين أرحم كثيرا من انفصالهما، وتمزق الأبناء بينهما » .

دفعتنى رسالة «القهر الجميل» - التى تروى فيها زوجة وأم عن معاناتها مع زوجها وقهرها الجميل بأولادها الذى اضطرها لاحتمال هذه المعاناة - إلى أن أكتب لك رسالتى هذه فلقد بدأت قصتى مع زوجتى عندما تقدمت إليها وهى معيدة فى إحدى الكليات العملية التى لن أحددها كى لا أضعها فى موضع الحرج فى عملها، وتمت الخطبة ثم الزواج، ولم تتكلف أسرتها مليما واحدا فى تكاليفه بناء على رغبتى، بل واشتريت لها سيارة.

وسافرت للعمل فى الخارج، وأنجبنا خلال رحلة الزواج ابنة فى الرابعة عشرة الآن وابنا فى الحادية عشرة وتقدمت هى فى علمها حتى أصبحت أستاذة فى كليتها ورجعت أنا إلى مصر منذ ثلاث سنوات والتحقت بالعمل بإحدى الشركات الدولية، وظلت هى تستخدم السيارة فى الذهاب إلى عملها وأنا أذهب إلى عملى سيرا على الأقدام.

صحيح أنه قريب من منزلى لكن هذا هو الوضع الذى ارتضيته بإرادتى واختيارى، كما ارتضيت بإرادتى واختيارى أيضا أن أكتب باسمها كل شىء.. كل شىء حتى لتعجب حين تعرف أنه لا يوجد حساب فى البنك باسمى بينما يوجد حسابان باسمها، واحد فيه مدخراتنا، وهذا هو الحساب العلنى الذى تصل إلينا كشوفه، ونقرأها معا ونطمئن منها على موقفنا المالى ومستقبل أولادنا ونتبادل الرأى والمشورة حوله، أما الآخر فهو حساب خاص باسمها أيضا ادخرت به من أموالى دون علمى بعض

المدخرات وكان المفروض ألا أعرف عنه شيئا وقد اكتشفته بالمصادفة البحتة وأدركت حين اكتشفته أنها قد تغيرت ولم تعد هى نفس الزوجة التى عرفتها، وتساءلت كثيرا بينى وبين نفسى ما الذى دفعها لهذا التصرف وكل شىء باسمها كما أردت أنا من البداية؟ ثم بدأت زوجتى تسىء معاملتى وتحملت بسبب القهر الجميل الذى أشارت إليه كاتبة الرسالة واستمرت المعاملة السيئة فهجرتها فى الفراش اتباعا لتعاليم ديننا الحنيف حتى ينصلح حالها فأخطأت خطأها الفادح وأهانتنى واتهمتنى بالعجز فبلغ بى الضيق منها، وفقدت صبرى وسيطرتى على نفسى وضربتها ولكن ضربا غير قاس ولا يترك آثارا ولا عاهات ولقد تعاقدت مؤخرا للعمل بدولة أخرى فى منصب مرموق وبمرتب مغر وأضع أمامك الآن هذه الحقائق:

- لقد قلت لزوجتى منذ تزوجنا إنها إذا أخطأت أو أهانتنى فلا حل عندى إلا الطلاق لأن من طبيعتى ألا أعرف الحلول الوسط.

- الآن وبعد أن أهانتنى أصبح من المستحيل استمرار الحياة الزوجية بيننا على الأقل من وجهة نظرى.

- لابد من عقابها حتى تدرك خطأها، ولن يؤتى هذا العقاب ثماره فى تقديرى إلا بالطلاق وقد اضطرنى لذلك أهلها الذين وقفوا فى صفها.

والآن يا سيدى فلقد أصبح الطلاق محتما لكننى أسألك، هل

أسافر وأترك العلاقة بيننا معلقة هكذا وقد وعدت الجميع بأن أرسل إليها ما يوفر لها ولأولادى الحياة الكريمة وسأفعل بإذن الله؟ أم أطلقها الآن حتى أشعر بالراحة النفسية التى لم أذق لها طعما طوال السنوات الثلاث منذ عودتى من الخارج؟

إننى أعتقد أن من الأفضل للأبناء أن يشبوا فى جو لا نزاع فيه بين الأبوين حتى ولو عاشوا مع طرف واحد. فما رأيك؟

□ **ولكاتب هذه الرسالة أقول:**

نعم يا صديقى من الأفضل للأبناء حقا أن يشبوا فى جو لا نزاع فيه بين الأبوين، لكنه من «الأسوأ» لهم أن يتمزقوا بين أبوين منفصلين أو يعيشوا مع طرف واحد منهما.. وليس العكس كما تتصور.

إن كل من يريد الإقدام على اختيار الطلاق ويريد، أن يتخلص من إحساسه بالذنب تجاه أطفاله، يردد هذا الزعم ويحاول إقناع نفسه به، وقد يكون صادقا فى إيمانه به أحيانا.. لكنه كلمة حق يراد بها باطل للأسف الشديد، فقد أثبتت تجارب الحياة وخبرات علم النفس والتربية أنه حتى الأطفال الذين ينشأون بين أبوين متنازعين يكونون - إلا فى حالات استثنائية - أقل تعرضا للانحرافات النفسية والخلقية من هؤلاء الذين يتمزقون بين أبوين منفصلين أو يعيشون مع أحدهما دون الآخر، إذ يكفى أنهم فى النهاية يبيتون تحت سقف واحد مع أبويهم فيحسون ببعض الأمان

ولا يفتقدون رعاية أحدهما أو رقابته أو توجيهه فى مراحل نموهم التى تزداد حاجتهم فيها لكل ذلك. أما أبناء «أسرة الأب الواحد» كما يسمونها فى أوروبا فهم أكثر تعرضا للفشل والانحراف النفسى والخلقى والإحباط من هؤلاء الذين عانوا من منازعات الأبوين، لكن سفينة حياتهم مضت بسلام فى النهاية إلى غايتها. نعم إن الوضع الأمثل هو أن ينشأوا بين أبوين متحابين متفاهمين والا يشهدوا نزاعا علنيا واحدا بينهما.. لكنه إذا تعذر ذلك.. فبعض الشر أفضل من الشر كله، وبعض الأثر السلبى لمنازعات الأبوين أرحم كثيرا من انفصالهما، وتمزق الأبناء بينهما.. ولعل هذا ما عنته كاتبة الرسالة الأولى بالقهر الجميل، أى قهر الأبناء للأبوين وردهما إلى جادة الحكمة والتعقل كلما هما بتمزيق الخيط الرفيع الذى يربط بينهما.

ومن ضرورات هذا القهر أيضا أن يروض الإنسان نفسه على قبول الحل الوسط حين تتعلق به سعادة أبنائهم وسلامهم النفسى، بل إن الحياة تعلمنا أيضا ضرورة التنازل عن تشددنا فى كثير من أمورها، والقبول بالحل الوسط بل وبما هو دون الوسط أحيانا مساعدة للسفينة على أن تواصل رحلتها بأقل الأضرار ذلك أن ما لا يدرك كله لا يترك كله، لهذا فإنى أنصحك بأن تسافر إلى عملك بغير أن تهدم العلاقة الزوجية بينك وبين زوجتك، وبأن تدع للأيام فرصتها العادلة فى مداواة الجراح وتهدئة النفوس وتقريب وجهات النظر، فذلك أدنى إلى العدل والحكمة والرحمة بالأبناء من سياسة البتر والقطع بلا توان.

ولقد أخطأت زوجتك فى حقك لا شك فى ذلك بهذا الحساب الخاص الذى أخفته عنك ولا مبرر له وكل شىء باسمها من البداية، كما أنه «جحود» غير مفهوم لثقتك الزائدة على الحد فيها ووضعك لكل أموالك ومدخراتك فى حساب باسمها وحدها وليس باسمك أو باسميكما معا على الأقل.

لكن الخطأ يقود إلى الخطأ يا سيدى ويغرى به، فأنت قد قلبت الأوضاع الطبيعية وخرجت على المألوف منذ البداية بوضعك كل شىء باسمها بغير ضرورة، والمأساة تبدأ - كما يقول ذلك المثل الأوروبى - حين يسكت الديك وتصيح الدجاجة، وهذا صحيح لأن كل إنسان ميسر لما خلق له. وللزوجة حقها أن تكون لها ذمتها المالية المنفصلة عن زوجها، وفى أن يكون لها حساب خاص بها تودع فيه مدخراتها وأموالها الخاصة، لكن ما الداعى لأن يكون كل شىء باسمها منذ البداية؟ وما وجه العجب فى أن يغريها ذلك على التمادى فى الخروج على المألوف، فتضيف إلى الحساب العلنى حسابا آخر تخفيه عن زوجها وقد صاحت الدجاجة من الأصل وانقلبت الأوضاع؟! ومع ذلك فكل شىء قابل للإصلاح رعاية لحق الأبناء، وعشرة السنين.. وجوانب الرحلة الأخرى التى لم تكن تعيسة ولا شقية كما فهمت من رسالتك، وليس بالعقاب وحده تنصلح الأحوال.. إذ يكفى أحيانا التزام العدل وتصحيح الأوضاع الخاطئة.. ورفض الخطأ، والتمسك بهذا الموقف إلى أن تتغير الأحوال إلى الأفضل.

وإذا كانت قد أهانتك.. فأنت قد ضربتها.. وهذا يكفى الآن.. فسافر إلى عملك.. وليراجع كل منكما موقفه وأخطاءه وعيوبه.. وليكن عادلا مع نفسه ومع شريك حياته فلا يتردد فى الاعتذار إذا أقر بالخطأ ولا يبخل بالعفو إذا اعتذر إليه الطرف الآخر..

وشكرا..

٨

الحلم الجميل!

«إن أطهر النفوس: النفس التى خبِرت الألم فرغبت فى أن تجنب الآخرين مرارته».

لعلك تذكر الرسالة التى نشرتها منذ فترة بعنوان «الحساب الخاص» للزوج الذى يشكو من أن زوجته قد بدأت تتغير فى معاملتها له بعد أن عاد من عمله الطويل بالخارج منذ ثلاث سنوات، وأنه اكتشف بالصدفة وجود حساب خاص فى البنك باسمها بعيدا عن الحساب المشترك لهما لم تخبره به، ويسألك هل ينهى علاقته مع زوجته أم يتركها معلقة ويسافر للعمل فى الخارج مرة أخرى حفاظا على الصغيرين؟ إن كاتب هذه الرسالة يا سيدى هو أبى فأنا ابنه من زوجته الأولى الذى تزوجها فور تخرجه فى الجامعة وأنجب منها طفلا وليدا.. ربما فى نفس الشهر الذى أعلن فيه طلاقه لها وسافر للعمل فى الخارج ولبدء صفحة جديدة فى حياته. وهكذا «فتحت عينى» فلم أجده إلى جوارى وأحاطتنى والدتى وأسرتها الكريمة بالرعاية الشاملة والحب الكبير والعطاء اللامحدود، إلا أننى برغم كل ذلك كنت أشعر دائما بأن شيئا ما ينقصنى وبأن جزءاً ما بداخلى مازال خاويا.

ومع أنه لم تنقصنى أبدا الأشياء المادية ولا الرعاية المعنوية إلا أنى برغم ذلك نشأت وحيدا صامتا شاردا إذا جائتنى فكرة لم تخرج عن حدود ذهنى وإذا تردد خاطر فى مخيلتى لم أجد من أحدثه عنه إلى أن حصلت على الليسانس من إحدى كليات القمة وعملت فى نفس مجال أبى واقتربت منه وتعرفت إلى أسرته الجديدة وعلى أخوىَّ الصغيرين اللذين طال انتظارى لهما

وأحببتهما من أعماق قلبى وغبطت هذه الأسرة الصغيرة على الجو الجميل الوردى الذى أعيشه معهم خلال العطلات، ثم بدأت تحدث المشكلات التى شكا لك منها أبى وكنت شاهد عيان لها فحزنت لهذا التدهور الغريب وحاولت الإصلاح بكل جهدى بين الطرفين لكنى فشلت للأسف وبدا لى أن الفجوة أكبر من أن تلتئم بهذه السرعة.. لهذا فإنى أريد أن أقول لأبى ولكل الآباء والأمهات إن الطفل حتى لو نشأ فى أسرة مضطربة بالخلافات لكن يظلها سقف واحد فإن ذلك يكون أفضل له ألف مرة من أن يعيش مع أحد الأبوين فى سلام وهدوء وأمان على عكس ما يتصورون فبرغم أنى قد نشأت فى أسرة متدينة يظلنى الحب والرعاية إلا أنى حتى - وبعد أن بلغت مرحلة الشباب - مازلت أشعر بأنى لم أعش طفولتى ولم أهنأ بإحساس الابن تجاه أبيه ومازالت تعترينى نوبات حزن وأسى شديد غامضة حتى أتذكر كيف كنت أمضى أمسيات طويلة كئيبة لا أجد من أحدثه فيها، ولو كان أبى معى حينذاك - حتى وسط خلافات حادة وقاتلة بينه وبين والدتى - لكان قد فتح قلبه لى واحتضننى وضمنى إلى صدره ولهذا أقول للآباء والأمهات: إن الأم لا تستطيع أن تعطى ابنها إحساسه بأبيه مهما فعلت وأجهدت نفسها والأب لا يستطيع أيضا أن يعطيه إحساسه بأمه مهما فعل وإن الجميع يقعون فى خطأ قاتل حين يعتقدون أن الانفصال «أفضل» للأطفال من الحياة فى أسرة مضطربة بالمشكلات والخلافات بين الأبوين، فصحيح أن لهذا

الاضطراب آثاره السلبية على نفسية الأطفال والأبناء، لكن هذه الآثار - صدقونى - أرحم كثيرا من أن ينشأ الطفل مع أمه بعيدا عن أبيه أو مع أبيه بعيداً عن أمه.. ومن خلال بابك هذا أتوجه بنداء صادق إلى كل أسرة أن تحافظ على أبنائها من آثار الانفصال الكئيبة ومن عذابات الهجران المريرة.. وكل مشكلة فى النهاية لها حل.. والحل لا يكون بالهروب من المشكلة بل بمواجهتها.. ولهذا السبب أقول لأبى من خلالك إننى أرجوه بل وأناشده وأتوسل إليه ألا يترك أسرته الجديدة وألا يكرر مع أخوىَّ الصغيرين الخطأ الفادح الذى ارتكبه معى فى طفولتى وألا يتركهما فى هذه السن الصغيرة ويبتعد عنهما، كما أرجوه ألا يترك زوجته تتحمل وحدها عبء تربيتهما ورعايتهما وألا يدع هذين الصغيرين للقهر النفسى الذى عانيته ذات يوم، بل يحيطهما برعايته وحبه ويعوضهما عما افتقدته أنا فى طفولتى لديه ولم أجده عند غيره. إننى أرجوه أن يحاول مرة أخرى وأخرى إلى أن يصل إلى حل ينقذ أسرته.. ولن أطيل فى أسباب الخلاف بينه وبين زوجته حول الحساب الخاص.. وأشياء أخرى لكنى أطالب أبى بأن يعذر زوجته بعض الشىء فيما فعلت فهو مسرف جدا، وقد عانت معه كثيرا من المشكلات التى تسبب لها فيها لأسباب لا داعى للإشارة إليها ولولا حبها وعاطفتها الكبيرة تجاهه - التى يعترف بها أبى - لما حافظت عليه ولما استمرت أسرته. إذن ألا يستحق أن يغفر لها خطأ واحدا هو

خطأ الحساب الخاص بغير علمه وأن يحمى أسرته الصغيرة من أجل طفليه؟ إننى أدعوك لأن تناشد أبى أن يحافظ على أسرته الصغيرة التى أحبها ورأى فيها حلما جميلا لم أعشه وذكريات طفولة لم أستمتع بها من قبل وجوا عائليا صادقا لم أهنأ به ورعاية أسرية متوازنة من جانب الأبوين لم أجربها فى حياتى. لقد حرمتنى الأيام من أن أعيش فى مثل هذه الأسرة الطبيعية الجميلة وأدعو الله الا يحرمنى من رؤيتها مستمرة وناجحة لأشخاص أحبهم وأخشى عليهم من تقلبات الأيام، وأدعو الله أن يحفظهم من كل سوء وشكرا لك..

□ ولكاتب هذه الرسالة أقول:

بل شكرا لك أنت ياصديقى على رقة مشاعرك ونبل مسعاك..
إن أطهر النفوس.. هى النفس التى خبرت الألم فرغبت فى أن تجنب الآخرين مرارته. وأنت تحاول مخلصا أن تنقذ أخويك الصغيرين من تجرع نفس الكأس المريرة التى تجرعتها فى طفولتك، وتناشد أباك التجاوز عن خطأ زوجته التى حلت فى حياته محل والدتك وتلتمس لها بعض العذر فيه. وتضم صوتك إلى صوتى فيما أقوله مرارا من أن تجارب علم النفس الحديث قد أثبتت بما لا يدع مجالا للشك أن أضرار انفصال الأبوين النفسية والتربوية على الأطفال أخطر وأكبر من أضرار نشأتهم فى أسرة مضطربة بالشقاق والخلافات.. ولكن يظلها فى النهاية سقف واحد يجتمع تحته الأبوان ويجد لديهما

الأبناء ما يحتاجون إليه من كل منهما، ولا يستطيع أحدهما أن يلبيه لهم وحده، وأن الحجة الباطلة التى يرددها البعض عن أن أضرار الانفصال النفسية على الأطفال أقل من أضرار استمرار حياتهم فى أسرة مضطربة.. ليست فى حقيقتها سوى حيل دفاعية للتخلص من إحساسهم بالذنب تجاه أطفالهم حين يقدمون على الانفصال. وقد كان فى مقدورهم أن يواصلوا تحمل متاعب حياتهم حرصا على مصلحة الأبناء، فيلجأون إلى حيلة «التبرير» هذه وإلى محاولة إقناع النفس بما ثبت خطؤه لكى يطلبوا سعادتهم الشخصية أو يتخلصوا مما يشق عليهم احتماله من متاعب مع شريك الحياة.

وها هى تجربتك الشخصية ـ وأنت الذى لم تشك يوما من الحرمان، ولم تفتقد الرعاية طوال حياتك ـ تؤكد أن من الاحتياجات النفسية للأطفال الصغار ما لا يلبيه لهم إلا نشأتهم فى رعاية أبوين حريصين عليهم مهما كانت طبيعة العلاقة الخاصة بينهما.. ومهما أجهدنا أنفسنا فى محاولة تلبيتها أو تعويض نقصها.

فماذا نقول لهم أكثر من ذلك؟ ونحن لا نطالبهم فى النهاية بالمستحيل وإنما بأن يصبروا على آلامهم حتى يجتاز أبناؤهم مرحلة الطفولة المبكرة التى تشتد فيها حاجتهم النفسية والتربوية والاجتماعية للأبوين معا، ثم فليفعلوا بعد ذلك بحياتهم ما يشاءون..

وماذا أستطيع أيضا أن أضيف إلى رسالتك هذه لكى أؤكد لأبيك ما سبق أن نصحته به بألا يهدم أسرته الصغيرة لأول خطأ.. وبأن يعطى الأيام فرصتها لإصلاح ما طرأ على علاقته بزوجته من عوارض جديدة ليست مستعصية على الإصلاح، خاصة إذا ساعدته زوجته على ذلك بالاعتذار له عما حدث بينهما فى الخلاف الأخير.

إن كلماتك المتوهجة بنار التجربة أقدر منى كثيرا على إقناع أبيك بأن يستجيب إلى ندائك - غير المسبوق - هذا له.. بل وبأن يتفهم أبعاده، وعمق المأساة فيه وهو الرجل المثقف الذى لا تغيب عنه معانيه، فهو نداء من «الضحية» السابقة - التى لم تفسد مرارة التجربة نفسها الطيبة النقية - له بأن يعفى أخويه الصغيرين من نفس المصير.. فكيف لا يتأثر به قلبه وعقله وضميره.. كما أتوقع منه بإذن الله؟

٩

الأحلام الغريبة

«إن مال الدنيا لايغنى الأبناء شيئاً إذا فسدت قيمُهم. وانه لأفضل لهم مائة مرة أن ينشأوا على القيم الصحيحة فى أسرة سوية محدودة الإمكانات عن أن يرثوا أموال قارون وقد اختلت قيمهم وموازينهم، ودفعوا ثمن تمزق الأسرة».

أنا سيدة عمرى ٣٧ سنة.. تزوجت منذ عشرين عاما، وواصلت تعليمى بعد زواجى حتى تخرجت، وتم تعيينى معيدة بالجامعة.

ونظرا لزواجى صغيرة فى السابعة عشرة من عمرى ووجود فارق كبير فى السن بينى وبين زوجى فلقد كنت أنظر دائما إلى زوجى كمثل أعلى وككل شىء لى فى حياتى.

لكنى مع مرور السنوات وتجربة الأيام بدأت اكتشف أن زوجى ليس ناجحا فى حياته، وأنه يلجأ دائما لأخوته أو لأى إنسان آخر لمساعدته. وظل ينتقل من فشل إلى فشل حتى سئم الجميع مساعدته، فلم يجد أمامه سواى لأعوض عجز إمكاناته، ولم أرفض أو أتوان فى ذلك بل قدمت له كل ما استطعت من مساعدة مادية ونفسية وواصلت التقدم فى عملى حتى أصبحت أستاذا مساعداً بإحدى كليات القمة، وكان علىَّ أن أدبر دائماً مطالب حياتى بما يكفل لنا أن نظهر - أنا وزوجى - بالظهور اللائق بمستوانا العائلى لأننا - للأسف - من أسرتين كبيرتين كل أفرادهما ناجحون وفى مناصب مرموقة.

وليست هذه هى المشكلة.. لكن المشكلة الحقيقية بدأت حين رأى زوجى أن الحل الأمثل لمشكلاتنا المادية هو أن أسافر للعمل فى إحدى الدول العربية. ولا أنكر أننى قد تحمست لذلك فى البداية لأن مرتبات أساتذة الجامعة فى

هذه الدول كبيرة لكننى راجعت نفسى بعد قليل فوجدتنى لا أرغب فى خوض هذه التجربة لأنى سأسافر إلى مقر عملى وأقيم به وحدى لارتباط أولادى بمدارسهم المختلفة وضرورة بقاء زوجى معهم.. فضلا عن أننا نعيش فى بلدنا فى مستوى معيشى مرتفع ولا ينقصنا سوى القدرة على تأمين مستقبل أولادنا وإجراء بعض التجديدات فى مسكننا وأثاثنا، وصارحت زوجى بذلك وأنا على يقين من أنه سوف يقدر لى رغبتى فى ألا أتركه وأترك أولادى وبيتى، من أجل مطالب من هذا النوع ففوجئت به يصدمنى صدمة شديدة بغضبه وباتهامه لى بالتراخى وعدم الجلد على الكفاح ويقول لى: إن من واجبى ألا أكون أنانية حرصا على صالح أولادى.

وتألمت لموقفه.. وذهلت له.. ومع أننى كنت أستطيع أن أصر على ما أريد وأستمسك بعدم تنفيذ حكم النفى الذى أصدره زوجى ضدى.. فلقد أحسست بجرح كرامتى ومشاعرى كزوجة وقررت السفر ليس تنفيذا لإرادته وإنما لأنه مادام لا يتمسك بى.. فلن أستمسك أنا به أيضا.

وسافرت إلى مقر عملى الجديد فى أول تجربة اغتراب لى عن بيتى وأسرتى بعد عشرين عاما من الحياة العائلية المستقرة.. وأدهشنى أننى وجدت مثيلات لى فى مقر عملى، ولهن نفس ظروفى تقريبا ويعملن ويقيم معهن أزواجهن بلا عمل أو انتظاره

منذ سنوات، أو وحيدات ينفذن عقودا للعمل وأزواجهن فى بلادهم يعملون ويرعون الأولاد! وأحسست كأنى أمام مسرحية هزلية تقوم فيها النساء بدور الرجال. والأكثر غرابة أن معظم من رأيتهن - ولهن نفس ظروفى - كن راضيات عن حياتهن وغير ساخطات على أزواجهن ماعدا سيدة واحدة يدل حالها على أنها تعانى ما أعانى منه.

واحتملت عامى الأول ما استطعت من قوة أعصاب بصبر وعدت فى الإجازة السنوية وأنا أتوقع من زوجى أن يبادرنى بأمر صارم لى بعدم السفر مرة أخرى لأنه فى حاجة إلىّ ولأن أولادى يحتاجوننى فضلا عن أننى امرأة ولا يصح أن أغترب وحيدة بعيدة عن زوجى فى مجتمع آخر، فصدمت للمرة الثانية بإصراره على عودتى للسفر بعد انتهاء الإجازة واعتبار ذلك أمرا مفروغا منه وليس موضوعا للمناقشة! فأمضيت الإجازة مكتئبة وعدت للسفر بعد انتهائها كما فعلت أول مرة ولكن مع اختلاف جوهرى هو أننى رجعت لمقر عملى وأنا أحمل فى صدرى كراهية شديدة لزوجى الذى كنت أحبه حبا كبيرا وأعتبره كل شىء فى حياتى طوال عشرين سنة وكان أهم دوافعى للسفر هو أنه البديل الأخف وطأة للطلاق حرصا على مصلحة أبنائنا.

وأريد أن أسألك الآن يا سيدى. هل أنا مغالية حقا فى

إحساسى بوجوب أن يقوم الرجل على زوجته وأن يكون غيورا عليها؟

وهل أنا أنانية فعلا كما يتهمنى زوجى؟ لقد أحببت زوجى دائما وأخلصت له منذ ارتبطت به لكنى الآن أكرهه وأمضى ساعات طويلة شاردة تراودنى فيها أحلام غريبة كأحلام اليقظة فأتخيل أننى زوجة لرجل يمنعنى من العمل حرصا علىّ ويبدى غيرته ويرفض التفاهم حول هذا الأمر ويكرمنى ويقوم على أمرى كما وصف الله الرجال بأنهم «قوامون على النساء». وأفيق من تخيلاتى على وحدتى وأفكارى فأزداد اكتئابا يوما بعد يوم.

والحق أننى لست أرفض مبدأ العمل، فلقد كنت أعمل فى بلدى وسأواصل العمل به، بل ولا أرفض مساعدته بكل ما أملك.. لكن ما لا أقبله أو احتمله هو أن يلفظنى زوجى الذى كنت أحبه ويرسلنى إلى بلد آخر لأحضر له المال حتى ولو كان ذلك بحجة تأمين مستقبل الأبناء. إنه يا سيدى يريد بقائى فى عملى هذا لعدة سنوات مقبلة وأنا لا أستطيع تحمل فكرة تخلى زوجى عنى وعدم تمسكه بى.. فهل أطلب منه الطلاق؟ ومن المخطىء منا.. أنا أم هو؟ وماذا حدث لبعض الرجال يا سيدى.. حتى هانت عليهم كرامتهم إلى هذا الحد؟ إننى أرجوك أن تنصحهم بأن يحافظوا على زوجاتهم لأنى أشعر بحزن شديد

على حالى. ولابد أن هناك كثيرات يشعرن بمثل ما أشعر به.. وشكرا.

☐ ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

قوامة الرجل على زوجته يا سيدتى هى قوامة تكليف وليست قوامة تشريف بصفة عامة ولنحتكم فى ذلك إلى نص الآية الكريمة التى يتجاهل البعض نهايتها غالبا عند الاستشهاد بها وتقول «الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله» صدق الله العظيم ومنها نفهم أن هذه القوامة مشروطة بقيام الزوج بتكاليف الرجولة وأعبائها، ومنها «بما أنفقوا» وليس من هذه «التكاليف» بأى حال من الأحوال أن ينفى الزوج زوجته إلى أرض بعيدة رغما عن إرادتها ورغبتها ومتجاهلا كل اعتباراتها الشخصية لكى تعمل وتعرف وتكافح وتجمع له المال لكى يؤمن به مستقبل أبنائه أو يجدد حياته، وإنما من تكاليفها الأساسية أن يقوم هو بكل ذلك نيابة عنها.. فإذا أتيحت لزوجته فرصة لم يتح له مثلها ورغبت هى فى الاستفادة منها بإرادتها الحرة لكى توفر لأبنائها حياة أفضل جاز له أن يوافق على ذلك.. وجاز له أيضا أن يرفض ويتمسك بحقه فى أن تقر زوجته فى بيتها معه ومع أبنائه مفضلا صالح الأسرة والأبناء وحماية زوجته مما قد تتعرض له على الاعتبارات المادية. وأما أن يكرهها زوجها

أدبيا على ذلك ويمارس معها الابتزاز النفسى لتقبل بما لا تريده متهما إياها بالأنانية لرفضها الاغتراب والبعد عن زوجها وأبنائها فهذا هو «التنطع» الذى ما كان لك أن تقبلى به من البداية، أو تضعفى أمامه.

فالزوج هو المسئول شرعا وقانونا عن إعالة أسرته وتأمين مستقبل أبنائه، وللزوجة أن تعينه على ذلك بمحض إرادتها وإحساسا بمسئوليتها المشتركة عن أبنائها وأسرتها لكن ذلك كله فى النهاية ليس واجبا عليها، ولا تكليفا من تكاليفها حتى ولو كانت ذات مال.

والمرأة كما يقول لنا الإمام محمد أبو زهرة رضوان الله عليه: «تعمل إما لحاجتها أو لحاجة المجتمع إليها» وحاجتها للعمل هذه قد تكون حاجة مادية وقد تكون حاجة نفسية. وخلاصة القول إن العمل حق للمرأة وليس واجبا عليها. وصاحب الحق يستطيع أن يتنازل عن حقه بإرادته بلا لوم عليه من أحد. أما صاحب الواجب فلا يستطيع أن يتخلى عن واجبه «إلا حق عليه اللوم، واتهام زوجك لك بأن رفضك السفر والاغتراب والحياة وحيدة فى مجتمع غريب «أنانية» من جانبك.. اتهام مضحك حقا!

فأنت - كما تقولين فى رسالتك - تقومين بتحمل العبء الأكبر من مسئولية الأسرة وأسرتك فى النهاية تعيش فى مستوى معيشة مرتفع نسبيا.. ولا تؤرقكم إلا ما يهمس لكل رب أسرة من رغبة

فى تأمين مستقبل الأبناء.. وهى رغبة شريفة فى حد ذاتها ولكن بشرط أن يضطلع بتحقيقها زوجك، ولا بأس أيضا بأن تضطلعى بها أنت إذا كانت فرص تحقيق ذلك أمامك غير متاحة لزوجك ولكن بشرط أيضا أن ترغبى أنت فى ذلك بإرادتك الحرة وبغير إكراه أدبى أو نفسى لك وبغير ان تدفعى ثمنا لذلك الاغتراب والحياة كزوجة وحيدة فى أرض غريبة. أما أن يطالبك زوجك بكل ذلك وينعى عليك «عدم الجلد على الكفاح» ويتهمك بالأنانية.. فهذا نموذج فريد حقا للمنطق المعكوس ولىّ الحقائق.

فزوجك يطالبك بالجلد والكفاح وربما يذكرك أيضا بقول الشاعر الرومانى العظيم فرجيل: «إن المجد لا ينال تحت الفراش.. ولا تحت الأغطية» وفى نفس الوقت يتدثر هو بأغطية العجز والفشل والتخبط والقبوع فى بيته وبلده بجانب الأهل والأبناء! فأى تناقض هذا... وهو يقدم لهم عمليا هذا النموذج العجيب لرمز الأب فى مخيلتهم؟ إن مال الدنيا لن يغنى هؤلاء الأبناء شيئا إذا فسدت قيمهم، وإن الأفضل لهم مائة مرة أن ينشأوا على القيم الصحيحة فى أسرة متوسطة يعولها الأب بموارده المحدودة وتعينه الأم على أمره بدا تملك يداها وينشأ الأبناء بين أبوين متحابين متعاونين عن أن يرثوا أموال قارون وقد فقدوا احترامهم لأبيهم واختلت قيمهم وموازينهم ودفعوا

ثمن تمزق الأسرة وتبادل الأدوار فيها غاليا من أخلاقهم واستقرارهم النفسي والعائلي.

وبعد كل ذلك فإني أقول لك إنه لو كانت هناك دوافع مادية ملحة كإنقاذ الأسرة والأبناء من مأزق مالي طارىء أو لسد ديون عجزت الأسرة عن سدادها أو لتلبية مطالب ضرورية كتوفير المسكن مثلا لما كان لك يا سيدتي أن تترددي في قبول التضحية وتحمل تبعاتها النفسية.. أما أن يكون الهدف وراء ذلك هو الطموح المعتاد لدى كل إنسان إلى حياة أفضل، و«الوسيلة» هي الابتزاز والإرغام وإرسال الزوجة رغما عنها إلى المنفى فإنه يحق لك تماما أن تحزني.. وأن تستسلمي للتأملات وأحلام اليقظة التي ترين فيها الأوضاع الطبيعية للحياة وقد عادت إلى حياتك وليست الأوضاع المعكوسة.

إن نصيحتي لك هي أن تصححي هذا الخطأ الذي استمر أكثر من عام على غير إرادتك قبل أن يستقر ويتحول إلى أمر واقع أو تتعودي عليه إلى النهاية فالحق أنه أخطر من الخطأ نفسه أن نعتاد عليه فيصبح أمرا مألوفا لنا ويفقده قدرته على إثارة العجب والاستنكار.

وقديما قال أحد المؤرخين لنا: «تبدأ الكارثة حين يصبح الاستثناء من القاعدة أمرا مألوفا لنا.. وتصبح القاعدة أمرا غير مألوف» ورأيي هو أن تعودي إلى بيتك وأبنائك وعملك ببلدك بعد

نهاية هذا العام الدراسي مكتفية بما حققت لأسرتك من خير، وأن تبلغي زوجك بقرارك الحاسم والنهائي برفضك الاغتراب وحيدة مرة أخرى، وليتفضل هو بالكفاح والاغتراب إذا كان راغبا فيهما.. أو فليرض بحياته ويشكر ربه على نعمة الزوجة المطيعة المضحية المخلصة والأبناء الصالحين وما أتيح له من أسباب الحياة وهو ليس بقليل قبل أن تتحول كراهيتك العارضة المؤقتة إلى كراهية حقيقية مريرة.. ويفقدك للأبد فيلوم نفسه يوم لا ينفع اللوم ولا الندم!

١٠

جسر المودة

«تجربة الانفصال تحفر فى شخصية الرجل آثارها العميقة ، وتغير الكثير من أفكاره ونظرته للحياة ، تماماً كما تفعل فى شخصية المرأة» .

أنا مـدرسـة عـمـرها ٢٩ سنة، تزوجت منذ تسع سنوات من مدرس بالتعليم الثانوى، وبدأنا حياتنا الزوجية فى بلدة ساحلية صغيرة حيث نعمل معا بعيدا عن مدينتنا الأصلية فى وسط الدلتا، ولم أتحمل طويلا فى هذه البلدة الصغيرة مع ظروفنا القاسية وقلة الدخل، فسعيت للعمل فى الخارج وحصلت على فرصة عمل فى إحدى الدول وسـافـرت إليـهـا لأقيم فى سكن المدرسات وحيدة وبعيدة عن زوجى الحبيب.

وواظبت على إرسال كل ما أدخره من مرتبى إليه، لكى يحقق لنا حلمنا الكبير فى الحصول على شقة فى مدينتنا، الأصلية. وبعد شهور حصل زوجى بالفعل على الشقة المطلوبة فى مدينتنا وكتبها باسمه ورجعت من غربتى بعد سنة واحدة لأستأنف معه حياتنا الزوجية مرة أخرى وأنجبت طفلة وعرفت طعم الأمومة لأول مرة وبعد فترة بدأت أضيق بالشقة الصغيرة التى حصلنا عليها، وأحلم بشقة أخرى أجمل وأوسع، فقدمت أوراقى مع زوجى لنفس الدولة التى عملت بها لمدة سنة، وفوجئت بقبول أوراقى وحدى ورفض أوراق زوجى.. وفكرنا فيما نفعله إزاء هذا الوضع الغريب وانتهى تفكيرنا وبتأييد وإلحاح منى على أن أسافر وحيدة وأحاول إيجاد فرصة عمل لزوجى واستقدامه إلى حيث أقيم لنستعيد حياتنا معا.. وسافرت وتركت طفلتى الرضيعة لدى أختى وحاولت كثيرا العثور على فرصة عمل لزوجى بلا جدوى.. فركزت أملى فى اختصار فترة افتراقنا بادخار كل ما أستطيع ادخاره وإرساله

لزوجى أولا بأول.. واشتدت علىّ ظروف وحدتى وابتعادى عن زوجى وطفلتى الرضيعة، فأصبحت أيامى كئيبة وبطيئة.. وفى هذه الظروف النفسية غير المريحة فوجئت برسالة من أسرتى تحمل لى خبرا غريبا هو أن زوجى المحبوب الذى اغتربت لأوفر لنا إمكانات حياة أفضل معا، على علاقة غير شريفة مع جارتى المتزوجة والأم لأولاد وبنات!.. وقرأت الرسالة فى ذهول ورفضت أن أصدق هذا النبأ الغريب أو أتصور أن يسلونى زوجى الذى أتحمل عناء الغربة من أجله بهذه السرعة الغريبة، واستنكرت ذلك فى أعماقى بشدة وأصررت على ألا أصدقه لكن الرسائل توالت علىّ بعد ذلك من أفراد أسرتى تؤكد لى ما أرفض تصديقه، ولم أملك أن أفعل شيئا.. وأنا بعيدة عن زوجى وبيتى، وانتظرت بفارغ الصبر انتهاء عقدى ورجعت إلى بلدى وزوجى وطفلتى وفوجئت بأن ما أرسلته لزوجى من مدخرات لشراء الشقة الجديدة قد تبخر فى الهواء.. ووجدته - كما قيل لى غارقا - حتى أذنيه فى اللهو المحرم مع هذه السيدة العابثة.. ومع ذلك فلم أواجهه ولم أثر عليه لأنى لا أملك دليلا مؤكدا على خيانته لى سوى أنه قد بدد بعض مدخراتى بحجج ومبررات غير مقنعة. وذات يوم كنت أنظف شقتنا فعثرت على بعض شرائط التسجيل مخبأة فى أحد أركان الشقة فأثارت اهتمامى وريبتى ووضعتها فى جهاز التسجيل فإذا بها رسائل صوتية من الجارة الفاضلة تبث فيها زوجى لواعج حبها وتؤكد له استعدادها للانفصال عن زوجها لتتزوج منه.. ونظرت إلى طفلتى

التى كانت تلعب أمامى فى هذه اللحظة وعمرها لا يتجاوز أربعة أعوام، واشتعلت نيران الغضب فى رأسى.. وجاء زوجى فواجهته لأول مرة بكل ما عرفته وفوجئت به يبكى وينهار ويقول لى إنها سيدة عابثة لكنه عاجز عن التخلص منها. وسوف يفعل المستحيل ليقطع علاقته بها ويعوضنى عن كل ما مضى من أخطاء!! ووجدت نفسى أصدقه ياسيدى رغما عنى وأحاول مساعدته على إصلاح خطئه.. وبذلت كل جهدى لرعايته وإحاطته بحبى واهتمامى بعد هذه المواجهة وسعد بما أفعله من أجله فهدأت نفسى إلى أنه قد رجع عن خطيئته وقطع علاقته بهذه السيدة العابثة، وحملت مرة أخرى وأنجبت طفلة ثانية.. وبعد ولادتى بأسبوع فوجئت بمن يؤكد لى أن علاقة زوجى بالأخرى لم تنقطع يوما واحدا منذ عودتى من العمل فى الخارج برغم الوعود والعهود وبرغم كل ما أبذله له ومن أجله.. وكدت أصاب بالجنون.. وواجهته مواجهة صاخبة مرة أخرى.. وصرخت فيه باكية طالبة منه أن يذكر لى الشىء الناقص الذى يفتقده فىّ ويجده عندها لأستكمله مؤكدة له أننى سوف أغير ما لا يعجبه من شكلى.. وما لا يعجبه من طباعى وسلوكى حتى لا يبحث عن أى شىء مفقود لدى الأخرى. فأقسم لى بأغلظ الأيمان أنه قد قطع علاقته بهذه السيدة منذ عودتى لمصر وبرغم عدم اقتناعى بما يقول فقد صدقته أو اضطررت لأن أصدقه إنقاذا لبيتى وأسرتى والطفلتين، وبعد عذاب طويل وجدت أننى لن أستريح من هواجس الشك مادمت أقيم فى الشقة المجاورة لشقة

المرأة الأخرى العابثة خاطفة الأزواج، فقررت أن أبيع هذه الشقة ونشترى بثمنها شقة أخرى فى حى بعيد، وبعت الشقة بالفعل واشتريت شقة أخرى تحت التشطيب فى حى بعيد..

وانتظرت بفارغ الصبر انتهاء تشطيب الشقة الجديدة ليجتمع شملنا فيها من جديد وانتهى التشطيب بعد معاناة فاصطحبت شقيقتى وذهبنا إلى الشقة الخالية لنقوم بتنظيفها استعدادا لنقل الأثاث إليها.. ودخلت الشقة فإذا بى أجد نفسى أمام زوجى ومعه السيدة العابثة التى أقسم لى بأغلظ الأيمان أنه قد قطع كل علاقة له بها.. ومادت بى الأرض وقبل أن أتمالك نفسى، وأنطق بأى شىء كانت الأخرى قد هرولت هاربة وبقى زوجى يتعثر فى الكلام ويحاول أن ينطق بأى اعتذار فلا يجد ما يقوله!.. وأحسست باليأس القاتل من أى أمل فى إصلاحه بعد أن بذلت معه المستحيل لإصلاحه، فطلبت الطلاق فرفض طلاقى إلا إذا تنازلت له عن كل حقوقى، وبعد مداولات ومحاولات عديدة اتفقنا على أن نبيع الشقة الجديدة التى لم يقدر لنا أن نعيش فيها ونقتسم معا ثمنها وفعلنا ذلك. وتم الطلاق وعدت إلى بيت أسرتى أحمل لقب مطلقة برغم أنفها.. وبرغم كل محاولاتها لإصلاح زوجها والصفح عنه.. وواجهت نظرة المجتمع غير الصحية للمرأة المطلقة حتى لو كانت قد فعلت كل ما فى مقدورها لتفادى الطلاق وتنازلت فى سبيل ذلك حتى عن كرامتها كامرأة - كما فعلت - وواجهت أيضا معاملة غير مريحة من أمى وأخوتى للطفلتين اللتين لا ذنب لهما سوى أن

أباهما لم يفكر فى مصيرهما وهو ينساق وراء نزواته وأهوائه، وكان أقسى ما يجرح مشاعرى وينكأ جراحى هو أن تسب أمى أو أخواتى الطفلتين بأبيهما تعبيراً عن حنقهم عليه وعلى ما فعل، وأحسست باليأس من حياتى وفقدت ثقتى فى نفسى وفيمن حولى من بشر، وبدلا من أن أزداد حنوا على الطفلتين البريئتين وجدت نفسى أنفعل عليهما كثيرا رغما عنى وضيقا بما أنا فيه وما آل إليه حالى.. فلقد كنت أسأل نفسى دائما: ماذا جنيت حتى ألقى ما لقيته من زوجى.. وماذا قصرت فيه.. حتى يكون هذا هو جزائى؟.. فأزداد اكتئابا ويقل صبرى على الطفلتين ثم أفيق إلى نفسى وأبكى بكاء مرا.. وهربا من كل شىء سعيت مرة أخرى وراء العمل فى الخارج، وتعاقدت للعمل بإحدى الدول العربية وتركت الطفلتين لدى أختى وسافرت إليها حزينة ومكتئبة وبعد سفرى بشهور ذهب زوجى السابق إلى أختى وطلب استرداد الطفلتين لتعيشا معه. ولم تجد شقيقتى مفرا من الاستجابة لرغبته، وبعد أسابيع بدأ زوجى السابق يكتب إلىّ رسائل يطمئننى فيها على أحوال الطفلتين، ثم بدأ يعبر لى بعد فترة عن ندمه عما فعل وارتكب من أخطاء كبيرة فى حقى، ويقول لى إنه نادم أشد الندم على علاقته بهذه المرأة وإنه قد تاب عن خطيئته وخير الخطائين التوابون، ثم روى لى فى إحدى رسائله أنه قد اشترى شقة تمليك جديدة وأنه مستعد لاستئناف حياتنا الزوجية معا بأى شروط من أجل طفلتينا، وبعد عامين من انفصالنا.

ووجدت نفسى فى ظروف غربتى ووحدتى أفكر فيما يعرضه علىّ برغم انعدام ثقتى فى عهوده السابقة بعد تجربتى المريرة معه، لكنى يا سيدى قد جربت آلام الوحدة، وجربت عذاب البعاد عن طفلتى.. وجربت معاناة لقب المطلقة ووضعها ولم يعد بى قدرة على مزيد من الاحتمال برغم أن أهلى يكرهون زوجى السابق كراهية شديدة، ولا يطيقون مجرد سماع اسمه بعدما نالنى منه لكنى حائرة ومترددة.. وأميل للعودة إليه من أجل طفلتىَ ومن أجل أشياء كثيرة أخرى وليس لى من شروط للعودة إليه سوى أن أرجع إليه على أساس متين من الثقة والأمان.. فالأمان هو أهم شىء عندى الآن وشرطى لأن أشعر بالأمان معه هو أن يكتب الشقة الجديدة باسمى كما سبق أن كتبت أنا شقة باسمه فى البداية، وقد كان على استعداد لأن يفعل ذلك لكن أهله أقنعوه بالعدول عن ذلك خوفا من أن أغدر به ذات يوم.. وفى الحقيقة فإنه لا يهمنى فى كثير أو قليل أن يكتب الشقة باسمى أو لا يفعل، لكنى أريد الأمان والاستقرار فقط لى ولأولادى، وأشعر أن ذلك لن يتحقق إلا إذا ضحى واستجاب لشرطى.. لهذا أرجوك أن تشير علىّ بالرأى الصائب فى أسرع وقت لأن عقدى على وشك الانتهاء وسأعود إلى بلدى خلال أسابيع، كما أرجو أن تكتب لزوجى السابق الذى يقرأ لك بانتظام ويقتنع بآرائك بأن يتنازل بعض الشىء عن موقفه، ويوافق على طلبى الوحيد من أجل طفلتينا، كما أريدك أن تفيدنى بما إذا كان تفكيرى فى شرط الشقة من أجل الأمان والاستقرار صحيحا أم خطأ.. وشكرا لك على كل شىء..

☐ ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

الأصل فى المعاملات أن يتم تسجيل الشىء المشترى باسم من يدفع ثمنه وليس باسم أى إنسان آخر لأن المرء أحق بما كسبت يداه، وما ينطبق على الزوج فى هذا الشأن ينسحب أيضا على الزوجة فيما تشتريه بحر مالها ومن عائد عملها وكفاحها، فلا يجوز لأحد الطرفين أن يضغط على الطرف الآخر ليستوهبه شيئا يملكه أو اشتراه مهما كانت الحجج والمبررات، وللمال حرمة لا ينبغى المساس بها، وقد نبهنا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم منذ قديم الزمان إلى أن ما أخذ بسيف الحياء فهو حرام، فما بالنا بسيف الإرغام والتوريط والإحراج؟.. إن الهبة التى يعلم من نالها جيدا أن واهبها قد وهبها له حرجا وتوريطا هى هبة حرام بكل المقاييس على من استحلها لنفسه وأرغم واهبها عليها بالابتزاز المعنوى والإكراه الأدبى.. ويندرج تحت هذا النوع المحرم من الهبات والعطايا كل ما يؤديه المرء للآخرين خضوعا لشرط قسرى يملى عليه الاستجابة له رغما عن إرادته وبغير أن تسمح به نفسه، وبهذا المعيار فإن اشتراطك على زوجك السابق أن يسجل باسمك الشقة التى اشتراها بماله مقابل العودة واجتماع الشمل يعد من الشروط القسرية التى لا تدع للإنسان حرية الاختيار والتصرف فيما يملكه بمحض إرادته وحريته، ومع أن ظروفك الخاصة قد تبرر لك التماس الأمان فى مثل هذا الشرط، إلا أن أمانك مع زوجك لن يتحقق للأسف بمجرد تسجيل شقة الزوجية باسمك،

وإنما يتحقق فقط بصدق استيعاب زوجك لدروس تجربته معك، وصدق ندمه على خطيئته السابقة وعلى أخطائه فى حقك وحق طفلتيه، وبصدق رغبته أيضا فى توفير الأمان والاستقرار لطفلتيه وتعويضك عما لاقيت منه فى الماضى. إذ ما أسهل أن يستجيب لشرطك ويسجل الشقة باسمك ويعيدك إلى عصمته ثم ينطلق وراء أهوائه بعد ذلك من جديد.. أو يكرهك بكل أنواع الإكراه الجسدى والمعنوى على أن تعيدى إليه ملكية شقته فلا تجدين فى النهاية، ومهما قاومت ورفضت، مفرا من الاستجابة لرغبته، والتخلص من ضغوطه الهائلة عليك.

لهذا فلست أرى الأمان الذى تبحثين عنه فى تسجيل الشقة باسمك، وإنما أراه فى مدى تغير نظرة زوجك السابق للحياة ومدى صدق نيته فى أن يرعى زوجته وطفلتيه ويسكن إليهن حتى نهاية الرحلة.. وأنت وحدك التى تستطيعين الحكم على جدية هذا التغيير [illegible] إيجابا [illegible] فإذا لمست منه ما يؤكد لك صدق [illegible] وصدق [illegible] التجربة [illegible] فلا تتوقفى طويلا أمام [illegible] الشقة لكى تعودى إليه [illegible] طفلتيك الصغيرتين معه [illegible] واحد.. وإذا لم تلمسى [illegible] إلى ذلك فلا تترددى [illegible] تأجيل قرار العودة [illegible] تماما دروس التجربة، [illegible] عنه وإن كنت أحسب أنه لابد قد استفاد منها الكثير والكثير، فتجربة الانفصال تحفر فى شخصية الرجل آثارها العميقة وتغير الكثير من أفكاره ونظرته للحياة تماما كما تفعل فى شخصية المرأة، وإن كنت أنت [illegible] الكثير من وحدتك وابتعادك عن

طفلتيك حتى بدأت تميلين للعودة لزوجك برغم كل ما جرى وبرغم مواقف أسرتك منه، فلابد أنه أيضا قد عانى الكثير من وحدته ومكابدته لرعاية طفلتيه الصغيرتين وحده، حتى بدا هو الآخر يراجع أخطاءه ويعترف بها ويعلن توبته عنها. فلماذا لا نستفيد من هذا الجانب الإيجابى فى شخصيته ونعمقه فيه؟ ولماذا لا نعتبر حرصه على أن يضم طفلتيه إليه ليرعاهما وحيدا بعد سفرك مؤشرا إيجابيا لإدراكه لحقوق طفلتيه عليه وهو فى رأيى مؤشر أهم بكثير من تسجيله شقة الزوجية باسمك مرغما ومبيتا النية على أن يستردها منك فى أقرب وقت؟ يا سيدتى إننى أؤيدك فى عدالة مطلبك بأن يتنازل زوجك السابق بعض الشىء ليكفر عن ماضيه معك ويثبت حسن نيته تجاهك لكنى لا أرى فى تسجيل الشقة باسمك شرطا يستحق أن ترتهن به سعادة طفلتيك واستقرارهما، وإنما قد أرى بعض هذه التنازلات العادلة فى أن يقدم لك [illegible] مناسبا يعتبر [illegible] "الممنوع عنه والعودة إليه" [illegible] صداق ملائم [illegible] فى [illegible] الحياة [illegible] ومع طفلتيه إلى نهاية العمر. أما أمانك المادى الذى تبحثين عنه فقد يكون فى مدخراتك [illegible] عملك وفى قدرتك على إعالة نفسك والاستقلال بمسكن خاص بك إذا اضطرتك الظروف إلى ذلك فى المستقبل، ولن تحتاجى إلى مثل هذا الإجراء ذات يوم بإذن الله فقد آذن ليل همومك بالإصباح، وسوف تطيب لك الحياة حين تتحد إرادتك مع إرادة زوجك حول هدف إسعاد طفلتيكما وتوفير الأمان والاستقرار لهما إن شاء الله.

١١

الجوهرة الثمينة!

«إشـعـار الآخـرين بالذنب تجـاهنا، لكي يـزيـدوا من عطفــهم علينـا، واسـتـمـسـاكـهم بنـا - إذا أخطأوا - ينبـغي ألايتـجـاوز الحـدود الآمنة، حتى لايؤدى إلى نتائج عكسية».

أريد أن أروى لك قصتي، وأن تنشرها كاملة لأني لا أخجل منها بل أريدها أن تكون عبرة لبعض الأزواج، فأنا سيدة فى الثلاثينيات من عمرى تزوجت منذ تسع سنوات وأحببت زوجي ورعيته بكل ذرة من جسمي، وأنجبت له بنتين وولدا والثلاثة: آية فى الجمال والحمد لله.. لأننى أيضا - بدون تواضع - زائف - جميلة جدا كما أنى ربة بيت ممتازة، وأحافظ على بيتى وزوجى وأطفالى بكل ما أملك، وبرغم كل ذلك فقد فوجئت بزوجى منذ أقل من عام يقول لى ذات يوم وبلا مقدمات كأنما يبلغنى بخبر عادى من شئون البيت أو العمل إنه سوف يتزوج من أخرى وسوف يحافظ على أسرتى ويعدل بيننا!

ياللمصيبة! لماذا يازوجى الحبيب؟ هل قصرت فى حق من حقوقك؟.. هل تشكو شيئا منى؟.. هل أنت غير سعيد فى حياتك معي؟.. هل وقعت كما يفعل بعض الأزواج فى قصة غرام كأفلام السينما ناسيا أطفالك وزوجتك؟ هل أنت محروم من الإنجاب وستتزوج لتنجب من الأخرى

لاشيء من كل ذلك ولاشيء على لسانه سوى أن الزواج بأخرى مباح.. ولابأس به مادام سيعدل بين زوجتيه!

ولن أصف لك ما صنعه هذا «الإعلان» المفاجيء فى حياتى من اضطراب وآلام جسدية ونفسية وإحساس بالاحتراق الداخلى عندى، ولاكيف انعكس على الأطفال بالخوف والبكاء وهم يروننى

أنهـار وأبكى وأتشنج أمـامـهم وزوجى لايبـالى بشىء من ذلك ويمضى فى مشروعه كأن شيئا لم يكن، وقد تزوج زوجى كما أراد وتغير نظام حياتنا فأصبح يمضى معى أربعة أيام ثم يغيب عنا وعن البيت وعن أطفاله الأيام الأربعة الأخرى يمضيها مع الزوجة الثانية!

وجدت نفسى خـلال الأيام الأربعة التى يغيبـها زوجى عنى أجلس وحيدة فى البيت فى المسـاء وقد نام أطفالى مبكرا.. وأنا ساهرة وعاجزة عن النوم وعن الاستمتاع بأى شىء..

وذات مساء من هذه الأمسيات الكئيبة رن جرس التليفون إلى جوارى فرفعت السماعة ووجدت صوتا عطوفا يسألنى: كيف حالك؟ وتذكرت صاحبه بغير عناء طويل.. إنه شخص من جيرانى فى بيت أسرتى، وقد علم من والدتى بما جرى من زواج زوجى فاتصل بى يسألنى عن أحوالى.. ويطمئن على، وقد سألنى: هل مازلت متألمة من زوجى فصارحته بأننى فى أشد الألم مما فعل زوجى وأنى سأجن إذا استمر الوضع على ما هو عليه بينى وبينه وأفكر فى طلب الطلاق للضرر المعنوى والنفسى الذى أصابنى من زواجه. وفوجئت بصاحب هذا الصوت الحنون يقول لى إنه كان يحبنى قبل أن اتزوج ومايزال يحبنى حتى الآن ولم يتزوج بعد وما يزال يتمنانى كزوجة له! وتكرر اتصال هذا الشخص بى فى الأمسيات التى يغيب فيها زوجى..

أعرف أنك ستعنفنى على ذلك بشدة بل وأنك قد توجه لى كلمات قاسية بهذا الشأن.. لكن هذا ما حدث ولست أريد أن أخفى عنك شيئا منه مادمت قد ارتضيت بك حكما فى أمرى وطلبت مشورتك المخلصة..

وقد صارحنى هذا الشخص فى اتصالاته التالية بأننى إذا حصلت على الطلاق فسوف يتزوجنى ويعطينى كافة الضمانات التى أريدها للحياة معه فى أمان واستقرار وسيسجل فى عقد الزواج أنه لن يتزوج غيرى كما سيسجل شقة الزوجية باسمى لأننى كما قال لى «جوهرة ثمينة» وأستحق كل ذلك وأكثر: وليس أن تشاركنى فى زوجى امرأة أخرى!..

ووجدت كلماته تتسلل إلى أعماقى وتؤثر فىَّ بشدة وبدأت أفكر جدياً فيما يعرضه علىَّ هذا الجار القديم.. وأنشغل به وبما يعرضه!

وكانت قد مضت ثمانية شهور على زواج زوجى بالأخرى ولم يعدل خلالها بيننا كما وعد.. ووجدت زوجى يمرض كثيرا وينقص وزنه وحين يعود إلى البيت قادما من عند الأخرى لا أجد نفسى قادرة على الاقتراب منه لأنى قد فقدت حبى له وأصبحت أنفر منه واستغرقنى التفكير فى الأمر لفترة ثم حزمت أمرى، وقررت الانفصال عن زوجى وديا..

فإذا رفض طلاقى قمت برفع دعوى طلاق للضرر أمام

المحكمة.. وحددت اليوم الذى سأصارحه فيه برغبتى النهائية فى الانفصال عنه ففوجئت بزوجى وفى نفس اليوم الذى انتظرته فيه لأطالبه بالانفصال يدخل البيت منكسرا ويتجه إلى والدموع فى عينيه ثم يقبل يدى الاثنتين ويطلب منى الصفح عنه فيما فعل بى وبأولاده لأنه قد أحس الآن فقط بما تسبب لى فيه من آلام ومعاناة. ولم أتجاوب معه لأن عواطفى تجاهه كانت قد فترت وإنما قلت له إنه قد فات الأوان لمثل ذلك وصارحته برغبتى فى الانفصال عنه، فوجدته ينهار باكياً بشدة ويقول لى إن الله قد انتقم منه بما فيه الكفاية وإنه كان قد قرر أن يطلق الأخرى بغض النظر عما قلته له الآن لأنه لم يشعر بالراحة معها ولم يجد لديها ما يجده عندى ولأن زواجه منها قد أوقعه فى ورطة كبيرة.. وشتته بين حياتين وبيتين مما أورثه القلق والتوتر والإجهاد البدنى والنفسى والمادى، ثم رجانى فى النهاية أن أتراجع عن قرارى الخطير هذا، وأن نواصل حياتنا معا بعد إصلاح الخطأ الذى تورط فيه.

ووجدت نفسى ياسيدى فى وضع غريب.. فلست أستطيع أن أواصل الحياة مع الرجل الذى غدر بى وجرح مشاعرى، ولست أستطيع فى نفس الوقت أن أتخلى وبسهولة كما تصورت عن بيتى وحياتى التى كانت سعيدة ومستقرة قبل هذه الأزمة.. فبماذا تنصحنى أن أفعل؟ هل أتراجع عن قرارى وأكمل مشوارى مع زوجى الذى غدر بى ولم أعد أحس بالأمان معه؟ أم هل أمضى فى طلب «مصلحتى» فأواصل مشروع الزواج من الإنسان العطوف

الذى يعدنى بالأمان والاستقرار معه بلا مفاجآت ولازوابع مفاجئة؟

أرجو ألا تقول لى فكرى فى أولادك.. فكفاهم ما أصابهم من أبيهم حتى الآن وسوف أتركهم له ليربيهم كما يشاء وهو قادر على توفير مربية لهم، وإنما أرجو أن تعيننى على اتخاذ القرار السليم السريع علما بأنى أعرف ربى جيدا وملتزمة دينيا ولا أفعل إلا كل شىء جميل بشهادة الجميع، فإن كنت قد صارحتك بحقيقة شعورى بدون خجل فلأن هذه هى حقيقة النفس البشرية التى ينبغى أن يعلمها الأزواج الغافلون ولأن المرأة كالرجل فى مشاعرها وتكوينها النفسى تحب كما يحب وتغريها المغريات كما تغريه. كما أن الشرع واضح فى شرط العدل بين الزوجات وأكثر وضوحا فى أن الأزواج «لن يعدلوا» مهما حاولوا.. فإذا كان الأمر كذلك فلماذا يلوموننا حين نبحث نحن أيضا عن سعادتنا وما يحقق لنا راحة أكبر وأمانا أكثر مع غيرهم وهم منصرفون عنا إلى «نزواتهم» أو إلى الأخريات فى حياتهم؟ إننى أعدك صادقة - وكما كنت كذلك معك فى مصارحتك بكل شىء - بأن أفعل ما تنصحنى به فبماذا تنصحنى يا سيدى؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

لو كنت حقاً تريدين الانفصال عن زوجك والارتباط بالآخر مضحية بأطفالك الثلاثة لما كتبت إلىَّ تطلبين النصيحة منى ولما

استشرت أحدا فيما تنوينه وأنت تعرفين جيدا أن النصيحة عندى وعند غيرى ستكون بألا تضحى بأى حال من الأحوال بأطفالك الأبرياء وبزوجك الذى عاد إليك نادما مستغفرا وبحياتك التى كانت سعيدة وآمنة حتى اعترضتها هذه العاصفة العابرة! ولاعجب فى ذلك فمن تتوسم فى نفسها هذه القدرة على اختراق حاجز الأمومة وإلقاء أطفالها الثلاثة الذين لا يتجاوز أكبرهم الثامنة من عمره - لأبيهم لتربيهم المربية بديلا عن أمهم، لكى تنطلق هى وراء أهوائها أو مصلحتها على حد تعبيرك فتتزوج رجلا آخر غير زوجها ووالد أطفالها بهذا اليسر والبساطة، من تتوسم فى نفسها هذا الجبروت وهذه الأنانية لاتستشير أحدا عادة فى أمرها ولاتسمع لرأى أحد، وإنما تستجيب فقط لنداء الحب أو المصلحة أو النزوة وتقتحم تجربتها ضد كل النصائح والاعتبارات، وتتحمل تبعات اختيارها نادمة أو غير نادمة. ولست أظن أنك من هذا الطراز من النساء حتى مع خطئك البشع فى الاتصال بالجار القديم والسماح له بأن يبثك مشاعره ويغريك بالانفصال عن زوجك والارتباط به، وإنما أنت غالبا تريدين فقط - حتى ولو لم تدركى ذلك بوضوح - الانتقام من زوجك وإشعاره بأنك أيضا تستطيعين الارتباط بغيره كما ارتبط هو بغيرك من قبل.

وقد تعمقت لديك هذه الرغبة النفسية فى الانتقام منه حين فوجئت بانهيار زوجك وندمه ورغبته فى التخلص من الأخرى ليخلو لك وجهه كما كان الحال بينكما قبل هذه الأزمة فكأنما

تريدين برفضك التجاوب معه.. وإبلاغك له أن الأوان قد فات لإصلاح الأخطاء - أن تشعريه بأن الأمر ليس بهذه البساطة واليسر وإنما يتطلب ندما أعمق وتكفيرا أكبر.. كما يتطلب أيضا وهو الأهم عندك - أن يتمثل زوجك بعض مشاعر الألم النفسى الذى عانيته أنت خلال انصرافه عنك إلى الأخرى! والرغبة فى إشعار المحبوب بعمق جرحه لمن يحبه تعكس الرغبة فى مزيد من التعويض النفسى منه لا الرغبة فى رفضه والابتعاد عنه. ولابأس بكل ذلك ولكن بشرط ألايتجاوز حدود احتمال زوجك حتى لاينعكس بالسلب على علاقتك به وليس بالإيجاب، فحتى إشعار الآخرين بالذنب تجاهنا لكى يزيدوا من عطفهم علينا وتمسكهم بنا ينبغى ألا يتجاوز الحدود الآمنة حتى لايؤدى إلى نتائج عكسية.

أما تفكيرك فى هدم بيتك وتشريد أطفالك والانفصال عن زوجك الذى أحببته معظم سنواتكما معا، والارتباط بالآخر الذى سيوفر لك الأمان والاستقرار والكرامة وباقى الضمانات الأخرى، فليس تفكيرا جادا ولاعمليا، فالحقيقة التى لاتنكرينها هى أنك لاتعرفين هذا الآخر معرفة جيدة ولم تدرسى أخلاقه وطباعه دراسة كافية، ولست على يقين من قدرته على الوفاء بعهوده لك ولا بما وعدك من التزامات ومغريات مادية كالشقة الموعودة على سبيل المثال، كما أنك لم تختبريه بالعشرة واختبارات الحياة المشتركة التى تمتحن حقيقة المشاعر وأصالة الطباع وعمق الوفاء، ولايتجاوز ما يربطك به فى النهاية سوى فحيح ناعم مألوف من

غازٍ جديد للبيوت الآمنة لعب على أوتارك الحساسة وصادف لديك ضعفا نفسيا وأخلاقيا عابرا بسبب إحساسك المؤلم بالنبذ والتجاهل من جانب زوجك حتى اهتزت ثقتك فى نفسك كامرأة وشككت فى جدارتك بأن تكونى مرغوبة من زوجك أو من الرجال بسبب انصراف زوجك إلى الأخرى فجاء فحيح هذا الجار القديم فى موعده الملائم لك تماما، وصادف هوى فى نفسك لأنه أعاد إليك الثقة المفقودة والإحساس السابق بجدارتك بأن تكونى مرغوبة من الجنس الآخر وزايد على هذا الإحساس عندك فاشعرك بأنك لست امرأة عادية بل أنك جوهرة ثمينة ولاعيب فيك سوى أن زوجك لايقدر الجواهر الأصيلة حق قدرها وهى معزوفة قديمة تجعل دائما من زوجات الآخرين عند أمثاله من الغزاة «جواهر» نفيسة لم تصادف للأسف من يعرف لها قيمتها سواهم. وتصل المفارقة إلى قمتها حين يكون هذا الغازى نفسه زوجا لأخرى لم يكتشف «جوهرتها الثمينة» أبداً ومع ذلك فهو يمد بصره و«خبرته» إلى «جواهر» الآخرين المصونة دائما!

لهذا كله أنصحك بألا تعولى كثيرا على هذه المعزوفة المهترئة لأنها «فولكلور» قديم ومألوف على ألسنة العابثين ومقتحمى الحرمات، كما أنها أمر مفهوم نفسيا على الأقل إذ بأى مبرر آخر يستطيع العابث أن يبرر «للجوهرة» اجتراءه على حرمتها وهى عرض رجل آخر سوى بإثارة غرورها وإشعارها بتقصير زوجها فى إدراك قيمة «الجوهرة» التى لايستحقها؟!

والأعجب من كل ذلك هو أنك تعتبرين استمرار الحياة مع زوجك - برغم ندمه وتخلصه من الأخرى وتمسكه بك واعترافه بخطئه فى حقك - لن تكون باعثة على الإحساس بالأمان معه لأنه قد غدر بعهدك مرة ودفع ثمن تجربته غاليا وعاد إليك نادما مع أن الأقرب للمنطق هو أن يزيده ذلك تمسكا بك وحرصا عليك بعد أن عرف لك قدرك وقيمتك فى حياته بالتجربة العملية المؤلمة. فى حين تعتبرين الارتباط بالآخر شبه المجهول بالنسبة إليك أكثر مدعاة للأمان والاستقرار فى المستقبل، مع أن اجتراءه على الحرمات وعلى اقتحام حياتك وأنت زوجة لرجل آخر، وإغوائك بترك زوجك وتشريد أطفالك الصغار كان ينبغى أن يثير لديك الشكوك حول قيمه الدينية والأخلاقية وحول عدم تردده طويلا أمام النواهى والمحاذير والأعراف السائدة وهى جرأة تثير الخوف من قدرة صاحبها على اقتحام حياة الآخرين فى المستقبل أكثر مما تستدعى الإحساس بالأمان والسلام معه، فأيهما أكثر إيحاء بالأمان والاستقرار إلى جواره؟ من تربطك به روابط أبدية كالأطفال الثلاثة وهو من - حتى حين غدر بعهدك مؤقتا - لم يرتكب محرما ثم عاد إليك نادما؟ أم من لم يتردد أمام الحرمات وسعى لإغراء زوجة بهجر أطفالها وزوجها بوعود لايعرف إلا الله سبحانه وتعالى حقيقة صدقه فيها ولامدى قدرته على الوفاء بها؟ ولاحتَّام سيستمر ولعه بهذه «الجوهرة» التى انتزعها من عش غيره؟

١٢

الأسئلة!

«لمن يكون «الستر» وتوفيق الله وحمايته إلا لأبناء «مرضى الشرف»؟ ومتى أمَّن المال وحده مستقبل أحد، أو مستقبل ذريته»؟.

قد لايكون فى رسالتى مايثير اهتمام القارىء من مأساة إنسانية أو مشكلة عاطفية لكنها برغم ذلك مشكلة جديرة بالاهتمام فأنا ياسيدى محاسبة شابة بإحدى الشركات الكبرى وزوجة لزميل لى فى العمل يسبقنى فى التخرج ببضع سنوات وقد تزوجنا منذ خمس سنوات ولدينا والحمد لله طفل عمره ثلاث سنوات ونصف السنة ومن حقه ومن حقنا أيضا أن يكون له شقيق أو شقيقة يتساندان معا فى الحياة ولكن كيف؟ هذا هو السؤال!

فالمشكلة باختصار هو أن إجمالى دخلنا أنا وزوجى حوالى ٧٠٠ جنيه.. وبرغم أن هذا الدخل الذى قد يحسدنا عليه آخرون ممن هم فى مثل عمرنا إلا أنه لايكفى لضروريات حياتنا، فقد أرهقنا مقدم الشقة التى تزوجنا بها برغم أنها متواضعة جدا، وقد تزوجنا ونحن مازلنا مدينين بأقساط جمعيات ادخار وأقساط حجرة النوم والمطبخ وأنتريه متواضع جدا وهو أثاث فى مجموعه يمثل الحد الأدنى الممكن الزواج به وقد دفعنا عشرة آلاف جنيه كمقدم الشقة وتكلفنا للأثاث خمسة آلاف أخرى، ولأن أسرتينا غير قادرتين على مساعدتنا فالله وحده يعلم كيف تحملنا هذا العناء فى بداية حياتنا لكى نستطيع تسديد أقساط هذه المبالغ، حتى لقد مرت بنا شهور فى بداية الزواج لم يدخل بيت العروسين فيها أى نوع من اللحوم أو

الفاكهة، ولا يعلم سوى الله كيف حرمنا أنفسنا من شراء أية ملابس أو أحذية لأكثر من سنة حتى استطعنا بعون من الله تسديد معظم ديوننا وتحسنت أحوالنا بعض الشىء وجاء طفلنا وتوقعت أن تتخفف حياتنا من بعض معاناتها بعد أن نجحنا فى تسديد معظم الديون لكن نفقات تربية طفل من دواء وملابس وأغذية وحضانة.. إلخ أثقلت كاهلنا من جديد.. فلم يتغير الحال.

وباختصار فإنى أريدك أن تشترك معى - أنت وقراؤك الأعزاء - فى تدبير ميزانية أسرتى الصغيرة لعلى أكون مقصرة أو مخطئة فى شىء فتقوموننى وتصححون لى أخطائى.

فمن دخل يبلغ حوالى ٧٠٠ جنيه أدفع مائة جنيه إيجارا للشقة وما يقرب من ٣٠ جنيهاً للمياه والكهرباء ونور السلم وأجرة البواب، وأدفع ٥٠ جنيهاً أجراً للحضانة التى أودع فيها طفلى خلال غيابى فى العمل، ويكلفنى علاجه إذا مرض والأطفال يمرضون كثيرا خاصة فى الشتاء، ما لايقل عن ٢٥ جنيهاً، كما أدفع قسطاً شهرياً للتليفزيون الذى اشتريته مؤخراً قدره ٥٠ جنيهاً، وأدفع ١٥ جنيهاً للغاز، وأتكلف أنا وزوجى للمواصلات كل شهر فى حدود ١٠٠ جنيه وأشترى أرزاً ومكرونة فى خلال الشهر بثلاثين جنيهاً، وتتكلف سندويتشات طفلى طوال الشهر مالايقل عن ٣٠

جنيها وأخصص لملابسه التى تستهلك سريعاً لخروجه للحضانة كل يوم ونظراً لنموه ٢٠ جنيهاً كل شهر فى أضيق الحدود، وأشترى لحما بـ ٦٠ جنيهاً بواقع كيلوجرام واحد كل أسبوع، ويكلفنى شراء دجاجة واحدة فى الأسبوع نحو ٦٠ جنيهاً أخرى، أما الخبز والحليب والخضروات فتكلفنى حوالى ٥ جنيهات فى اليوم أى ١٥٠ جنيها فى الشهر يتبقى بعد ذلك بند «الخزين» من سكر وشاى وزيت وسمن ومنظفات فيستهلك مالايقل عن خمسين جنيهاً. فإذا حسبت كل ذلك وجدت مجموعه ٧٧٠ جنيهاً أى مايزيد على مجموع دخلنا بسبعين جنيهاً كاملة ومازال هناك بند الملابس والمجاملات العائلية والفاكهة والمتطلبات الطارئة كعطل فى الثلاجة أو كسر فى الأكواب أو فى مصابيح الكهرباء.. فضلا عن مرضنا إذا مرضنا أنا وزوجى وما يتكلفه. فهل تعرف ماذا أفعل إذا اضطررنا لأداء أى واجب مجاملة للأهل والأقارب أو لشراء حذاء لى أو لزوجى؟ أقول كيف أدبر المبلغ المطلوب لمواجهة مثل هذه «الكارثة»؟ إننى أقتصد فى بند اللحوم والدواجن وألغى وجبة العشاء وأستخدم زيت القلى عشرات المرات برغم خطورته على الصحة وألغى زياراتنا للأهل والأقارب لتوفير بند المواصلات، ولا أفتح التليفزيون ولا الراديو ولا مصباح الكهرباء إلا حيث يوجد طفلنا حتى لايخاف ولا أنام إلا فى ساعة متأخرة من الليل

لكى أغسل ملابسنا القليلة خاصة ملابس الطفل بيدى وبغير استخدام الغسالة لكى أوفر فى بند فاتورة الكهرباء كما أجمع بقايا الأكل القليلة جدا التى تتبقى كل يوم وأحتفظ بها فى الفريزر لإعادة «تجميعها» وتقديمها كوجبة مستقلة تسد رمقنا فى أحد الأيام وأصلح حذائى بنفسى فألصقه «بالأوهو» أو أخيطه بالإبرة لأوفر أجر التصليح، ولا أشرب الشاى ولا القهوة إلا إذا جاءنا ضيف.

وكل هذا العناء لكى نوفر ثمن حذاء أو تكاليف مجاملة لامفر منها للأهل الذين سبق أن جاملونا.

أما الآن فقد أصبح ابنى على وشك الالتحاق بالمدرسة.. فهل تستطيع أنت وقراؤك الأعزاء أن تجدوا لى بندا من بنود الميزانية أستطيع أن أوفر منه لسداد متطلباته فى المدرسة؟

قد تقول لى إن مرتبى ومرتب زوجى سوف يزيدان بالضرورة وهذا صحيح لكن هل يضمن لى أحد أن تظل الأسعار كما هى الآن لكى تخفف زيادة المرتب من عناء حياتنا؟ إننى لا أعرف لماذا أكتب إليك بكل هذا لكنى أقول لك فقط إن الشىء الوحيد الذى يعيننى على احتمال جفاف حياتنا هو ذلك السؤال الذى أتمنى أن تجيبنى عنه وهو: ماذا يفعل أصحاب الدخول المحدودة ومن لديهم أكثر من

طفل أو ثلاثة أطفال وماذا يفعل خريج جامعى حديث يحلم بالمظهر والارتباط وبمساعدة الأهل وهو لن يجد بين يديه إذا وجد سوى مرتب بداية التعيين وهو ٧٥ جنيهاً؟..

ولدى سؤال آخر أريد أن أطرحه عليك ليس بدافع الحقد أو الحسد «والله» وإنما بدافع التعجب وهو: من أين يأتى الناس بكل هذا الكم من الملابس الغالية والمجوهرات والسيارات وكثيرون منهم موظفون وأصحاب دخول ثابتة؟

وهل نلومهم إذا قاموا بأى تجاوز وقد عرفنا معاناة المرضى بالشرف من أمثالى أنا وزوجى؟ إننى أحمد الله وأعرف أننى أفضل حالاً من غيرى لكن مايقلقنى هو مستقبل طفلى الذى أراه أكثر ظلاما مما نحن فيه فى ظل هذا الغلاء الطاحن.. فعذراً لكل ما أرهقتك به وأنت لاذنب لك فى شىء، لكنى فضفضت به عن نفسى واسترحت قليلا فشكرا لك. وأرجو أن تجيبنى عن هذه الأسئلة!

□ ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

أبدأ «إجابتى» بأن أشكرك فى البداية لأنك قد ذكرتنى فى ختام رسالتك بأننى لست «المسئول» عن مصاعب حياتك وحياة الملايين من أمثالك، فلقد كدت أتوهم مع تصاعد انفعالى تدريجياً بما تروين لى أننى «مسئول» فعلا بشكل أو بآخر

عـن هــذه المعـاناة أو عن هذه التناقـضـات التى تحـيـرك فى مجتمعنا، أما «الأسئلة» التى تنتظرين إجابتها منى فلقد ذكرتنى أيضا بما فعله رجل فرنسى التقى بالفيلسوف الألمانى هيجل وطلب منه أن يحدد له فلسفته باختصار فأجاب عن سؤاله فى عشرة كتب!

ولست أظن إلا أننى أحتاج لمثل هذا العدد من الكتب لكى أجيب عن أسئلتك هذه، ولهذا فلن أقول لك سوى أن ما تعانين منه يعانى منه كثيرون من أبناء الطبقة الوسطى الصغرى المعذبة التى تفرض عليها أوضاعها ألا تنزل عن مستوى معيشة معين لاتستطيع لظروفها أن تنزل عنه، ولاتعينها إمكاناتها المادية على الوفاء باحتياجاتها الضرورية فى ظل هذا المستوى.. ولاتستطيع فى نفس الوقت أن تتوسل للرزق بنفس الوسائل التى يتحايل أبناء الطبقة الدنيا عليه ولايقبلون بما يقبل به هؤلاء من مستوى أدنى للمعيشة فيمضى أبناء هذه الطبقة الوسطى الصغرى فى الحياة طاوين يعانون من الحرمان ويحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف. إنها أزمة جيل بأكمله وليست أزمتك وحدك. والمؤسف هو أن تدنى مستوى معيشة هذه الطبقة الصغرى يؤثر بالفعل تأثيرا سلبياً خطيراً على الحياة فى مجتمعنا وسيزداد هذا التأثير ضرراً فى المستقبل للأسف لأن أبناء هذه الطبقة هم وحدهم تقريبا الذين يلزمون أنفسهم بتنظيم

النسل إدراكاً منهم لمسئولياتهم تجاه أبنائهم..

فى حين يتناسل أبناء الطبقة الدنيا بلاحساب، فكأننا بذلك نحدد من حيث لاندرى نسل «الانتلجنسيا» أو الطبقة المتعلمة التى يرتبط بها تقدم المجتمع، ونترك الحبل على غاربه لأبناء الطبقة الدنيا التى لاتحرص على التعليم فيزيدون من عدد الأميين فى بلادنا، إنه وجع قديم ياسيدتى فسامحك الله على إيقاظه. ومع هذا فلست أوافقك على ألا نلوم أحدا إذا «تجاوز» طلبا للملابس الفاخرة والمجوهرات والسيارات.. فالتطلع لشىء من ذلك لايبيح اقتراف الحرام والعدوان على المال العام أو الخاص مهما كانت المبررات وإذا كنت ترين كما هائلا من هذا المتاع حولك فلأن فى مجتمعنا كثيرين ممن يملكون المال إلى جانب الكثيرين ممن لايجدونه والهوة بين الاثنين تتسع طردا للأسف والجميع مطالبون باحترام المال وتقدير مسئوليته الأدبية والاجتماعية وبعدم استفزاز مشاعر المحرومين. ومعاناتك على أية حال لن تستمر إلى النهاية فكل شىء يبدأ صغيراً ثم يكبر إلا الحزن الذى يبدأ عملاقاً ثم يتضاءل مع الزمن، وأحد الحكماء قال ذات مرة إن سنة الحياة هى أن يكون الإنسان قويا فى العشرين وجميلا فى الثلاثين وغنياً فى الأربعين وناجحا فى الخمسين وحكيما فى الستين. وإذا كان ليس من المتوقع أن يصبح كل إنسان غنيا فى الأربعين فإن الأمل حقا هو أن

يكون على الأقل غير محروم من متع الحياة الضرورية، بعد ١٧ أو ١٨ عاما من الكفاح الشريف فى الحياة وبهذا المعيار فإن مؤشر حياتكما يتجه للأفضل وليس للأسوأ كما تتشاءمين. ولابد أن يأتى دورك لتحقيق الأمان المادى والتخفيف من عناء الحياة وعلينا دائما أن نتطلع للأمام بقلب متفائل يثق فى قدرة صاحبه على تحقيق بعض أحلامه المشروعة فى الحياة المريحة. ومن عون ربه له على ذلك خاصة إذا كان من «مرضى الشرف» مثلك أنت وزوجك.. فهؤلاء هم الذين يغنيهم ربهم حقا وصدقا ويؤتيهم رزقهم بغير حساب جزاء بما صبروا. والرزق كما يرى فضيلة الشيخ الشعراوى نوعان:

رزق إيجابى مباشر يتمثل فى عائد العمل وغيره من مصادر الرزق، ورزق آخر سلبى يتمثل فى الستر وفى أن يجنب الله سبحانه وتعالى المرء اختبارات الحياة القاسية التى تستنزف المال والصحة والسعادة، لهذا فلا خوف على مستقبل طفلك ولا أنتم تحزنون؛ إذ لمن يكون «الستر» إذن وتوفيق الله وحمايته إلا لأبناء مرضى الشرف من أمثالكم، ومتى أمَّن المال وحده مستقبل أحد أو مستقبل ذريته والحق سبحانه وتعالى يقول لنا:

«وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم

فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا»..

يا إلهى.. لقد جرفتنى إلى الإسهاب من حيث لاأدرى وكنت قد اعتزمت ألا أحاول الإجابة عن تساؤلاتك هذه لأنها ليست أسئلة بقدر ما هى تأملات تدعونا لمشاركتك إياها والتفكير فى حياتنا وليس إلى محاولة الرد عليها.. فعفوا لهذا الاستطراد وشكرا لك.

١٣

الأمثلة!

«كلمة «الحمدلله» مفتاح كل خير.
وأهم نعمة من الله هى القناعة
والصحة».

أثارت رسالة «الأسئلة» التى نشرتها منذ أسابيع لمحاسبة شابة تشكو فيها من عجز مرتبها ومرتب زوجها الشاب عن الوفاء بالتزامات أسرتها وطفلها الصغير، عديدا من تعليقات القراء، فتلقيت عددا كبيرا من رسائلهم ويقدمون لكاتبتها «أمثلة» من حياتهم ربما تعينها على تقبل حياتها والرضا عنها.

وقد اخترت من بين هذه «الأمثلة» الكثيرة هذين النموذجين اللذين أنشرهما بغير تعليق، مكتفيا بما يعرضانه علينا من واقع يغنى عن أى تعقيب:

أرجو أن تنشر رسالتى هذه دون تعديل أو إضافة ردا على رسالة المحاسبة الشابة التى تتقاضى هى وزوجها سبعمائة جنيه ولديهما طفل واحد، وتشكو من عجزها عن تلبية احتياجاتها بهذا الدخل وتعرض عليك وعلى القراء ميزانيتها التى تؤكد أن نفقاتها «الضرورية» تزيد على دخل أسرتها بسبعين جنيهاً.. وترفض أن تنجب طفلا آخر للأسباب المادية وتتساءل عن مستقبل طفلها الوحيد الذى تراه مظلما فى ظل هذا الارتفاع الرهيب فى الأسعار؟!

أما رسالتى لهذه المحاسبة الشابة.. فهى أننى أيضا زوجة جامعية مثلها وشابة، وزوجى جامعى شاب مثل زوجها ويعمل مربيا فاضلا بإحدى المدارس الثانوية بمدينة صغيرة من مدن محافظة بنى سويف «ومرتبنا» الشهرى - حيث إننى لا أعمل - هو

مائة وعشرة جنيهات ـ بالتمام والكمال ـ وليس لنا أى دخل آخر غيره ولدى طفل رضيع ناقص النمو ويحتاج إلى جميع الڤيتامينات والكالسيوم. وقد نشأت ـ والله العظيم ـ فى بيت عز: به كل متطلبات الحياة، لكنى بعد زواجى تأقلمت مع حياتى وكافحت مع زوجى وبدأنا حياتنا الزوجية مدينين كما بدأت كاتبة الرسالة حياتها الزوجية.

ومن هذا المرتب البسيط سددنا ديوننا على عدة سنوات والحمد لله مع أن زوجى مدرس مادة لاتؤخذ فيها دروس خصوصية ولا يريدنى أن أعمل لأنه يؤمن بالزوجة الأم وليس بالزوجة العاملة، وقد أصبح عندى الآن ـ وبالتقسيط ـ كل الكماليات ولدى أيضاً تليفزيون ملون من أحدث الماركات وقد توافر لنا كل هذا «الخير» بكلمة الحمد لله وبأننا لاننظر للسيارات الفاخرة أو المجوهرات التى تنظر إليها كاتبة رسالة «الأسئلة» وتتساءل من أين يجىء بها أصحابها.. لأن أهم نعمة هى القناعة والصحة وقد أعطانا الله سبحانه وتعالى النعمتين، وربما تقول كاتبة الرسالة إننى أعيش فى الريف حيث المعيشة أرخص.. لكنى أقول لها إن الأسعار مرتفعة فى كل مكان، فإذا أرادت أن تعرف منى كيف أدبر ميزانيتى بهذا المبلغ الصغير فأجيبها بأن المسألة أكثر بساطة مما تتصور فميزانيتى «١١٠» جنيهات أدفع منها ١٠ جنيهات للكهرباء يتبقى مبلغ ١٠٠ جنيه أدفع منه ٢٢ جنيهاً إيجاراً يتبقى مبلغ ٧٨ جنيهاً اقسمه على أربعة اسابيع فتكون ميزانية الأسبوع هى

١٩,٥٠ جنيه، ولا أقول برغم ذلك إننى محرومة من شىء فنحن ـ والحمد لله ـ نأكل ثلاث «طقّات» كل يوم وزوجى يدخن ومستعدة أيضا أن «أعزم» كاتبة الرسالة على الغداء لدينا فى أى وقت تحدده، وعنوانى فى نهاية رسالتى وأنا خريجة تجارة مثلها وقاهرية لكنى أعيش فى إحدى مدن بنى سويف بعد زواجى.. وسوف يزيد مرتب زوجى مع الزمن، وستتحسن الأحوال وسوف يكون لنا كل ما نريد فى حياتنا بإذن الله.. وبفضل كلمة «الحمدلله». فأرجو أن تقول لكاتبة الرسالة كل ذلك وأن تنصحها بأن تستغنى عن الدجاج الذى يكلفها ستين جنيها فى الشهر وتكتفى باللحم فيقل العجز فى ميزانيتها إلى ١٠ جنيهات تستطيع توفيرها من أى بند آخر من بنود ميزانيتها.. وتحمد ربها كما نحمده نحن ليل نهار. والسلام عليكم ورحمة الله.

□ أما كاتب هذه الرسالة فيقول فى رسالته:

أقول للمحاسبة الشابة إن معاشى كمعلم سابق قضى سنوات طويلة فى تربية النشء هو ٢٢٣ جنيها وعشرة قروش ولدىّ والحمد لله ستة من الأبناء ٢ بالثانوى، و ٢ بالإعدادى، و٢ بالابتدائى. ونسكن فى إحدى قرى محافظة البحيرة بمبلغ ٤,٥٠ جنيه شهرياً، ويكلفنى الدقيق وحده ـ حيث إننا نصنع خبزنا بأيدينا ـ ٥٠ جنيهاً كاملة، ويكلفنى الفول والطعمية وهما طعامنا الأساسى ٦٠ جنيها فى الشهر بواقع جنيهين كل يوم، والشاى والسكر ١٥ جنيهاً، والزيت والأرز ٣٠ جنيهاً ويسافر ولداى

الكبيران إلى مدرستهما الثانوية فى مدينة قريبة فيكلفاننى مبلغ خمسين جنيهاً كل شهر للمواصلات بواقع جنيه فى اليوم لكل منهما لأن بلدتنا لاتقع على خطوط السكة الحديد أو الأتوبيس حتى نعمل لهما اشتراكا مخفضا فيهما.. وأحيانا يتعذر تقديم هذا الجنيه اليومى لكل منهما فيغيبان عن المدرسة، ونحن - والحمد لله - نشترى دجاجة واحدة لنا نحن الثمانية كل شهر بمبلغ ١٠ جنيهات أما اللحم فلا نتذوقه إلا فى العيد الكبير حين يجود علينا أهل الفضل به من أضحياتهم، وأما الفاكهة فنراها فى المحلات وأما السمك ،فلا نعرفه مع أننا نسكن بجوار بحيرة إدكو ونصف أهل القرية يشتغلون بصيد السمك أما الملابس فندفع لها قسطا شهريا قدره عشرون جنيهاً ونحن راضون والحمد لله عن حياتنا ولايؤلمنى إلا عجزنا عن دفع رسوم المدرسة الزهيدة فى بداية العام الدراسى، وتعرض أبنائى للتقريع اليومى من مسئولى المدارس فيعودون أحيانا باكين بسبب ذلك وحبذا لو تعفف المسئولون عن لوم أبنائنا على ذلك لعدم إحراجهم أمام زملائهم خاصة ونحن ندفع الرسوم فى النهاية وقبل الامتحان.

فقل للسيدة كاتبة رسالة «الأسئلة» أن تحمد ربها وتشكره كثيرا على ما أعطاها ويمكنها لكى تسد العجز فى ميزانيتها أن تكتفى بكيلوجرام واحد من اللحم ودجاجة واحدة خاصة أن أسرتها صغيرة العدد وأنا رب هذه الأسرة كبيرة العدد خريج جامعى مثلها.. ولا أعمل بعد المعاش ليس زهدا فى العمل وإنما

لأن ظروف القرية لاتسمح بالعمل، والصحة لاتسمح بالسفر يوميا كما كان الحال زمان. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

....

وأكتفى بهذين النموذجين المعبِّرين، ولا أجد ما أضيفه إليهما!

١٤

الفكرة الجريئة!

«الإنسان قادر دائماً على تعديل أفكاره وإعادة فرزها ومراجعتها ونبذ الخاطىء منها بالإرادة القوية، والعقل المفتوح، والرغبة الملّحة فى التغيير والإصلاح».

قرأت رسالة الشاب الذى تزوج من اثنتين وتحدث عن تمزقه بينهما، وقد شجعتنى هذه الرسالة على أن أعرض عليك قصتى التى أعرف أنها سوف تثير دهشتك واستغرابك.. فأنا سيدة فى الثلاثين من عمرى، كانت لى تجربة خطبة بطبيب يكبرنى بثمانى سنوات، ومن أسرة عريقة لكن إمكاناته المادية متواضعة فبقينا عاما طويلا دون أن يحرز أى تقدم فى توفير إمكانات الزواج وجاءتنى فرصة للعمل فى إحدى الدول العربية فسافرت إليها على أمل أن يحفزه ذلك على تدبير إمكانات الزواج، وأمضيت عاما آخر دون نتيجة فنصحنى الأهل والأصدقاء بفسخ خطبتى التى لاطائل من ورائها فكتبت إليه من مقر عملى بأننى لن أواصل الطريق معه وفوجئت به يتقبل قرارى هذا بهدوء برغم خطاباته الملتهبة التى كان يؤكد لى فيها دائما أنه لن يكون لامرأة أخرى سواى حتى نهاية العمر وصُدمت بذلك صدمة هائلة، ثم جاءت إجازتى الصيفية ورجعت إلى مصر، فحاولت إعادة المياه إلى مجاريها بيننا مرة أخرى لكنه رفض ذلك بإصرار وبرود فأسقطت موضوع الزواج من اعتبارى، وقررت العودة إلى البلد الذى أعمل به وأن أجعل هدفى هو جمع ثروة صغيرة تمكننى من العودة إلى مصر وإنشاء صيدلية خاصة بى بعد أن اضطررت للاستقالة من عملى السابق فى مصر.. وسافرت مرة أخرى وكرست أوقاتى لعملى، وتقدم لى أكثر من خاطب وحاول أكثر من شخص الاقتراب منى لأنى على قدر من الجمال وروحى مرحة، لكنى رفضت الجميع

لأنى كنت أقارن بين كل من يتقدم لى وبين خطيبى السابق، فأجده لايصمد للمقارنة، وألحّت علىّ أمى فى الزواج حتى لاأستمر فى حياتى فى الغربة وحيدة، ودبّرت لقاء بينى وبين طبيب شاب يعمل فى نفس البلد الذى أعمل به، ولكن فى منطقة ريفية بعيدة عن المدينة التى أقيم بها، وقارنت كالعادة بينه وبين خاطبى السابق فرجحت كفة الخاطب الجديد هذه المرة، وبعد شهر من هذا اللقاء تم عقد قرانى عليه فى مصر خلال الإجازة الصيفية وتلمست خلال وجودى بين أهلى أخبار خطيبى السابق فعلمت أنه قد عقد قرانه قبل أسبوع فقط من عقد قرانى على طبيبة شابة لها مركز مرموق، فصدمت بذلك مرة ثانية، لأنى كنت أتمنى أن يشعر بالندم على فقدى، فإذا به قد نسينى تماما، وارتبط بمن هى أفضل منى، وفجأة أحسست بإحباط شديد وبانعدام الثقة فى نفسى ولم يعد يساورنى أى إحساس بالفرح أو ترقب حياتى الجديدة التى ستبدأ فى خلال فترة قصيرة.

وعدت إلى مقر عملى بعد الإجازة وانتظرت أن يقدم زوجى طلبا للنقل من قريته البعيدة إلى المدينة التى أعمل بها وأقيم بها، فنتزوج ويجتمع شملنا، ونجحت فى الحصول له على عمل بمستشفى خاص بمرتب أكبر من مرتبه فى بلدته الريفية، وطالبته بالانتقال إلى مدينتى، فإذا به يرفض هذا العرض بإصرار لأنه يعمل عملاً حكومياً لايريد أن يفقده ويطالبنى بإلحاح بالانتقال إليه فى قريته.. ورفضت طلبه لأن الحياة فى تلك المنطقة خالية من كل

وسائل الترفيه المتاحة فى مدينتى، فثار ثورة عارمة وهددنى بالطلاق، وتدخلت أمى والأهل.. فاضطررت فى النهاية لتنفيذ طلبه خوفا من الطلاق فى الغربة وما سوف يثيره حولى من أقاويل ظالمة، خاصة بعد تجربة خطبتى الفاشلة، وانتقلت بالفعل للحياة فى القرية التى يقيم فيها زوجى بعد أن صُدمت صدمة أشد فى اختلاف طرق تفكيرنا وفى ردود فعله العنيفة جدا عند الخلاف.

وتم الزواج بلاروح ولاهدف من جانبى إلا إكمال الشكل الاجتماعى الذى تريده منى أمى والناس الذين لايرحمون آنسة وحيدة فى الغربة، وقررت أيضا إنجاب أطفال حتى تكتمل الصورة السعيدة فى أنظار الآخرين، ولكى يعتقدوا أننى إنسانة مرموقة استطعت أن أكون زوجة ناجحة وأما رءوما فأنجبت طفلتين فى خلال عامين على الرغم من المشاحنات العنيفة التى جرت ومازال تجرى بينى وبين زوجى ومنها على سبيل المثال فقط أننى تعرضت لعلقة ساخنة بعد شهرين من الزواج لأننى تأخرت دقائق فى إعداد طعام الإفطار فى أحد أيام شهر رمضان.. وكنت وحدى فى الغربة ولم أعرف كيف أتصرف ولم أجد مفرا من الاستسلام وقبول مصالحته واستمر حالى على هذا النحو فى كل مشاحناتنا، فأبكى بكاءً حاراً، ثم أقبل مصالحته مرة أخرى وأرهقتنى هذه المشاحنات المستمرة، فحاولت أن أجد تفسيرا لها فوجدتنى فى النهاية أتحمل بعض مسئوليتها.. لأنى أعيش معه بلاروح ولا رغبة حقيقية فى إسعاد نفسى، أو إسعاده فى ظل هذا الجو الكئيب

الذى حدثتك عنه، وبالإضافة إلى معاملته الفظة التى تجعلنى أفقد الثقة فيه وتصبغ نفسى بالمرارة تجاهه فلا تصفو نحوه بسبب الإهانات المتكررة بالرغم من أنه يؤكد لى أن هذه ليست شخصيته الحقيقية وأنه إنسان عاطفى جدا فى أعماقه ويحبنى لكن برودى ومعاملتى الجافة له وعدم اعتنائى بالبيت أو بإعداد الطعام مثلا له كما يريده يجعله يثور ويفقد أعصابه معى وهكذا وجدت نفسى أدور معه فى دائرة مفرغة فهو لاتعجبه تصرفاتى السلبية تجاهه ويذكرنى دائماً بأننى لست المرأة التى تعرف كيف تسعد زوجها نفسيا وحسيا، وأنا أتصرف معه سلبيا نتيجة لثوراته، وردود أفعاله العنيفة. كما أنه يقارننى دائما بزميلة له تعمل فى نفس البلدة منذ خمس سنوات بمرتب كبير وعمرها ٣٤ سنة وما تزال غير متزوجة، وتتقرب إليه بكل الوسائل وتكتب له قصائد الشعر التى تحمل تلميحات بحبها له ويحكى لى كيف كانت تعتنى به قبل زواجه وترسل إليه علب الطعام.. إلخ. ونتيجة لاستمرار الوضع بيننا على نفس الحال ومع تكرار المقارنات بين برودى تجاه زوجى وبين اهتمام هذه الزميلة به، خطرت لى فجأة فكرة جريئة يمكن أن تكون حلاً مرضياً لكل الأطراف، وهى لماذا لايتزوج زوجى هذه الزميلة فيجد لديها القلب الحنون العطوف المتوهج بالحب دائما الذى يبحث عنه، وتجد هى فيه الزوج والرجل الذى ترغبه من سنوات وتنقذ نفسها من الوحدة والخوف من المستقبل حيث إنها تخشى أن تتزوج ذات يوم من يتزوجها لمالها ويطمع فيها، وأجد

أنا أيضا راحتى فى بيتى فأعيش مع ابنتَى فى هدوء، وأتجنب نظرة الناس البغيضة للمطلقة، أما رغبتى فى الرجال فلقد انتهت نهائيا وحرام علىّ أن أمتنع عن زوجى، وحتى لو لم أمتنع عنه فلن أكون قادرة على التجاوب معه بالقدر الذى يحقق له السعادة؟ فلماذا أحرم زوجى من حقه فى أن يمارس هذه الأحاسيس الجميلة مع أخرى لن تكلفه تكاليف زواج جديد من شقة وخلافه؟ أولا تكون الزوجة الثانية التى لاتتعاطف معها أنت غالباً هى الحل المناسب لمشكلة كمشكلتى هذه يضمن به الجميع السعادة المشروعة بلازلل؟

□ ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

ظلمت نفسك وظلمت زوجك ياسيدتى بزواجك منه بلا روح ولا هدف سوى استكمال الشكل الاجتماعى الذى يريده لك الآخرون، ثم تماديت فى الظلم فأنجبت طفلتين بريئتين إمعانا فى الحرص على هذا الشكل المزعوم، وليس لأى سبب مشروع آخر، فأى ظلم هذا ارتضيته لهما ولزوجك ياسيدتى؟

إن الزواج يطلب لغايات إنسانية وعاطفية واجتماعية متشابكة ولايجوز أن يطلب لهذا الهدف وحده، وإلا فقد أهم أركانه وهو الحب والمودة والسكن والمشاركة فى رحلة الحياة، وأنت لم تحبى زوجك الذى ارتبطت به وأنجبت منه طفلتين يوما واحدا منذ عرفته للأسف ولو كنت قد فعلت لما خطرت لك مثل هذه «الفكرة الجريئة»

لحظة واحدة ولو كانت حياتك معه سلسلة من المشاحنات والمضاربات، والحق أنك لم تتوقفى بعد عن التفكير فى خاطبك السابق الذى «صدمت» حين تقبل رغبتك فى فسخ خطبتك له بهدوء، وصدمت أكثر حين علمت بأنه قد نسيك ولم يستشعر مرارة فقده لك وإنما ارتبط بمن ترينها أفضل منك قبل قرانك بأسبوع. فماذا كنت تريدين منه أن يصنع ياسيدتى حين تطلبين فسخ ارتباطك به ثم ترتبطين بغيره؟ وما هى الوسيلة المشروعة لأن تستشعرى فقده لك وقد عقدت قرانك بالفعل على غيره؟ ثم ماذا كنت تنتظرين من زوجك الذى تعيشين معه بلا روح ولارغبة ولامشاعر ولا اهتمام بإسعاده أو إسعاد نفسك معه؟ هل كنت تتوقعين منه أن «يتبتل» فى حبك وأن يذوب رقة فى معاملتك كل لحظة وأنت تتعاملين معه بلا روح ولا اهتمام ولا رغبة فى الحرص عليه؟

وهل تعرفين قسوة الإحساس برفض شريك العمر لك وعدم اقتناعه بك بالرغم من إنك لم تجربيه على الارتباط بك؟

إن كنت لاتعرفينه - لأن زوجك مازال يحبك برغم مشاحناته معك - فإنى أقول لك إنه إحساس مرير وقاتل للروح وللشخصية.. ويزلزل إحساس الرجل بالجدارة ويهز ثقته فى نفسه وربما يخرج منه فى معاملاته مع من يستشعر رفضه له أسوأ النوازع والسلوكيات التى لا تعبر عن شخصيته الحقيقية بأى حال من الأحوال، وهذا فى تصورى هو ماجرى بينك وبين زوجك فى خلال

سنوات الزواج من البداية فلقد كان الخليفة الثالث عثمان بن عفان من أكثر الناس حياء ولينا ورقة طبع، حتى لقد قال له الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ذات مرة: إن الملائكة لتستحى منك ياعثمان.. ومع ذلك فحين اشتد عليه خلاف الثائرين وأسرفوا فى اتهامه بشتى الاتهامات رد عليهم اتهاماتهم بعنف وقال متأسيا ومتعجبا من نفسه: «لقد أخرجتم منى خلقا لم أكن أحسنه ومنطقا لم أكن أنطق به» وهكذا كل إنسان وكل زوجة وكل زوج إذا اشتد عليه إحساسه بالرفض والظلم بلاذنب جناه، والحق أننى لا أقر أبدا المعاملة الفظة من أى زوج لزوجته، لكن البرود القاتل أيضا فى المشاعر والتصرفات السلبية من جانب الزوجة خطأ آخر يسهم فى إخراج أسوأ نوازع العنف والفظاظة من معاقلها، فأين مسئوليتك عن ذلك؟ وكل إنسان - كما يقول لنا السياسى والأديب الإنجليزى تشسترفيلد - هو فى حقيقة الأمر: اثنان.. الإنسان الذى هو كائن.. والإنسان الذى يتمنى أن يكونه!

والزوجة التى تؤمن بزوجها إيمانا كاملا ولاتضع عليه أية تحفظات أو اعتراضات هى الزوجة التى تعين زوجها على أن يكون الإنسان الذى ينشده معها ومع الحياة بوجه عام، ونفس هذا الدور أيضا يستطيع الزوج المحب أن يؤديه مع زوجته فيعينها بإيمانه بها على أن تكون الإنسانة التى تتمناها لنفسها معه.. ومع الجميع

فأصلحى من أمرك مع زوجك ياسيدتى وكفى عن مغالطة

النفس، إن لم يكن من أجلك أو من أجل زوجك الذى يحبك، فمن أجل طفلتيك اللتين لن تنشأ النشأة المثالية المرجوة لهما، فى جو أسرى كئيب تسوده المشاحنات والصدامات الدائمة، ولا أيضا فى أسرة ترعاها الأم وحدها لأن الأب قد ينشغل عنها بزوجة أخرى وبيت جديد كما تتوهمين.

والإنسان قادر دائما على تعديل أفكاره وإعادة فرزها ومراجعتها ونبذ الخاطىء منها بالإرادة القوية والعقل المفتوح والرغبة الملحة فى التغيير والإصلاح.. بل إنه قادر أيضا ـ بهذه الوسائل ـ على تدريب النفس على تعديل المشاعر والأحاسيس تدريجيا، والنزول بها من قمة الرفض إلى حافة القبول والتوافق ولو بحكم العادة والمعاشرة وتشابك الخيوط.. وشرارة الحب قد تولد فى النهاية فى أى زمان ومكان، فإن لم تنقدح شرارتها ففى العدل مع الآخرين ومع النفس الكفاية إلى أن يأذن الله لها بالانطلاق.

أما فكرتك «الجريئة» هذه فهى مشروعة فى حالة انتهاء رغبتك فى الرجال نهائيا كما تقولين لكنها لن تسعدك كما تتوهمين بل لربما أشعرتك «بصدمة» جديدة إذا تقبلها زوجك «بهدوء» بدلاً من أن يرفضها كما تتوقعين فى أعماقك الآن.. ولربما أشعرتك «بصدمة» أخرى حين يمضى فى طريق تنفيذها، ويجد زوجك لدى «الأخرى» كل مالم يجده لديك من عطاء نفسى وعاطفى وحسى فينصرف إليها عنك نهائيا وتتعجبين أنت من جديد كيف نسيك

هذا «الغادر» سريعا ولم يستشعر فقدك ولم يبك على الأطلال بقية العمر كما حدث من «الغادر» الأول حين رفضته فتزوج غيرك!

وحتى لو افترضنا أن هذه الفكرة ستكون حلا لمشكلتك فما يدريك أنها ستكون حلا لمشكلة زوجك الذى مايزال يحبك، والذى كانت زميلته أمامه قبل أن يتزوجك فلم يرتبط بها، وإنما اختارك أنت وأنجب منك طفلتين؟ ألا تعلمين أنه ليس كل الرجال بقادرين على تحمل العبء النفسى للتمزق بين زوجتين وبيتين وأسرتين، خاصة إذا كان للزوج أطفال صغار لايطيق البعد عنهم، أم أنه لابد فى بعض الأحيان أن نفقد «الأشياء» أولا حتى نستشعر قيمتها التى أهدرناها ونبكى عليها بعد فوات الأوان؟

١٥

الحركة الخاطئة!

«الإنسان معذب دائماً برغباته وأمنياته ولاحدً لمطالبه من الحياة».

أنا مهندس زراعى تزوجت منذ عشرين عاما.. وكانت زوجتى ابنة مميَزة لتاجر صديق لأبى وهو تاجر أيضاً، وقد تقدمت لخطبتها وهى فى السادسة عشرة من عمرها، وعلى قدر كبير من الجمال والأناقة ولها شخصية قوية زادت من وضعها المميَز لدى أبيها.

ومنذ عقد القران وقبل أن يجمعنا بيت واحد بدأ الصدام بينى وبين مخطوبتى أو زوجتى واستمر ٥ سنوات كاملة استغرقتها فترة الخطبة والقران.. ودار طوال هذه السنوات حول مسئولية الزوجة فى الزواج، فقد كان من رأيها دائما أن أية مسئولية تُشتمُ فيها رائحة «خدمة الزوج» مرفوضة نهائيا لأنها لن تكون «خادمة» لأحد أبدا تحت أى مسمى، واستمرت «المناظرات» بيننا حامية وكانت تساندنى فيها أمها وشقيقها الذى طالما حذرنى من تمرد شقيقته وتسلطها.. ونتيجة لذلك ولأسباب أخرى حدثت بعض المشكلات بينى وبين زوجتى ووصلت إلى مرحلة الطلاق قبل الزفاف ثم عادت المياه إلى مجاريها بيننا، وواصلت معها المشوار لأنى كنت برغم أفكارها عن الزواج أحبها بجنون بينما لم تكن هى للأسف تبادلنى الشعور نفسه.

وجمعنا عش الزوجية فى النهاية وبعد الزواج بدأت المشكلات تظهر على السطح بيننا من جديد وكان محورها الأساسى هو محاولتها التسلط والسيطرة علىّ ومحاولاتى أنا لترويضها، وبعد شهور قليلة من الزواج وقع الطلاق الثانى فى حياتنا الزوجية

بسبب تحديها لإرادتى ثم عادت المياه لمجاريها بيننا من جديد وحملت زوجتى ففوجئت بها تحاول إجهاض نفسها بطرق بدائية كالقفز من مكان عال إلى الأرض، وفهمت المغزى المؤلم لمحاولاتها هذه وازددت إحساسا بالألم فقد أدركت من ورائها أنها لاتريد استمرارحياتها معى ولا ترغبها.. ومن عجب أن الإجهاض قد تم فعلا ولكن ليس بسبب محاولاتها وإنما لأنها واجهت ظروفا صحية طارئة اقتضت إجهاضها لعلاجها منها.. ومع ذلك فلم أكف عن محاولة استمالتها وإرضائها.. وكانت تستجيب لى فى بعض الأحيان.. ثم تعود للتمرد والجفاء ومحاولة السيطرة من جديد.

وبعد عامين أنجبنا طفلة.. وبدأ سلوكها تجاهى يتغير نسبيا ولم يكن تغير معاملتها لى صادرا عن حب نما فجأة فى قلبها وإنما عن قبول بالأمر الواقع، ومحاولة للتعايش معه. ومع ذلك فلقد سعدت بتغيرها معى قليلا ورضيت به.

فقد كنت أتلهف إلى لمسة حب أو حنان من جانبها تقابل فيضان الحب الذى أحمله لها فى قلبى، وأغدقه عليها ولا أتلقى مقابله أى عطاء عاطفى وتخرجت زوجتى وعملت وأسهمت بجزء من مرتبها فى تكاليف حياتنا دون طلب منى، والحق أنها لم تكن ترهقنى بمالا طاقة لى به، لكنى كنت أتفانى فى محاولة إسعادها بمواردى البسيطة

وبعد سنوات من العمل وجدت أن مرتبى الحكومى غير قادر على تلبية احتياجاتنا، خاصة أننا كنا نرفض أن نتلقى أية مساعدة من أبيها أو أبى، وهما ميسوران. فبدأت أفكر فى طريقة عملية لزيادة دخلى وأتيحت لى فرصة الحصول على أرض بمشروع الخريجين فتمسكت بها واستقلت من عملى الحكومى وحصلت على ثلاثين فدانا فى أرض المشروع. فكنت اقيم فيها بضعة أيام كل أسبوع وأعود لزوجتى وأولادى فى نهايته.. وبدأت أحوالنا المادية تتحسن كثيراً ليس لنجاح المشروع ولكن لأن الحكومة كانت تصرف لنا قروضا لاستصلاح الأرض وبناء المنشآت اللازمة فيها فقمنا ـ أنا ومعظم زملائى ـ بالاستفادة بها فى تخفيف جفاف حياتنا وانفقنا جزءاً كبيرا منها على أنفسنا وليس على الأرض.. لهذا فاجأتنا الحقيقة المرّة بعد سنوات قليلة وهى أن الأرض تخسر لأننا لم ننفق عليها الإنفاق الكافى.

وعادت أحوالنا المالية تتدهور من جديد فانقذنى الله بعقد عمل فى إحدى الدول العربية وسافرت إليها تاركاً الأرض فى رعاية صديق لى.

وفى غربتى: حرمت نفسى من كل شىء لأرسل لزوجتى كل ما أستطيع ادخاره. وعشت عامين فى الغربة كنت فى خلالهما أرسل إلى زوجتى الرسائل العذبة الملتهبة أبثها فيها حبى وشوقى ولهفتى عليها وعلى الطفلتين فلا تجيب إلا بالقطارة.. ثم انتهت تجربة الغربة بعد عناء شديد وعدت إلى مصر فوجدت الموقف لم

يتحسن فى الأرض لأن المدخرات التى أرسلتها من الخارج أنفقتها زوجتى فى ضروريات حياة الأسرة من وجهة نظرها ولم يبق منها للأرض شيء كثير.

وفى لحظة يأس من تحسن الأحوال ومن قدرتى على أن أوفر لزوجتى مستوى الحياة اللائق بها خاصة وهى الحريصة دائما على المستوى الاجتماعى، عرضت عليها الطلاق وأن أترك لها البيت والمعاش البسيط وكلما تمكنت من تحقيق أى دخل من الأرض أرسلت لها كل ما أستطيعه، لكنها رفضت العرض مشكورة.. وقررت أن أعطى كل وقتى لمشروع الأرض، وأن تستمر زوجتى وأولادى فى القاهرة حيث مدارسهم وحملت ملابسى وهجرت البيت إلى الأرض، وأقمت فيها وبدأت أعمل فيها بجدٍ وبيدى وواجهتنى متاعب المعيشة هناك، طعام وغسيل! إلخ، وثقلت علىَّ وحدتى وإحساسى بالوحشة وشعورى بأن زوجتى لاتحبنى بالرغم من كل ماحملته لها دائما فى قلبى من حب منذ كانت صبية فى السادسة عشرة ولم أجد فى رفضها للطلاق ما يرضينى كرجل، وفسرت رفضها بأنه استشعار لمسئوليتها عن أولادنا ورغبة منها فى ألا تمزقهم بيننا وليس عن حب أو تمسك بى، ومن خلال احتكاكى بزملائى المهندسين الذين حصلوا على الأرض فى نفس المشروع وبالفلاحين الذين يعملون معى هناك، كان الرأى الذى يتردد كثيرا على ألسنتهم هو أنه لا حلَّ لمشكلاتى إلا بالزواج من فتاة ريفية صغيرة من أهل المنطقة ليكون لى بيت هادىء فى

منطقة الأرض، وأدهشنى أننى قد وجدت أكثر من نصف هؤلاء المهندسين الجامعيين المتعلمين الذين تركوا المدن وأقاموا هناك قد تزوجوا جميعا فى منطقة المشروع من زوجات ريفيات أميات ومن عائلات فقيرة بغير علم زوجاتهم فى المدن التى جاءوا منها.

وبدأت أفكر فى هذا الأمر جديا.. ولست أخفى عليك أن الفكرة قد لاقت قبولا لدى، لأسباب أخرى غير ما أشار إليه الزملاء من حل مشكلات المعيشة فى أرض المشروع، فقد كانت هناك أسباب أخرى لاتقل أهمية هى حاجتى لأن أشعر - وبعد أن تخطيت الأربعين - أن هناك من سوف يشعرنى بأنه يريدنى ويرغبنى.. بل و«يفرح» بالزواج منى، ولست أنا وحدى الذى أرغبه وأبثه عواطفى وأخطب وده منذ سنوات عديدة دون إشارة حب تجاهى من جانبه.

واخترت فعلا فتاة أمية صغيرة كان والدها يشاركنى فى زراعة الأرض، وهو من أعماق الجنوب، وعرضت عليه فوافق ببساطة، وقرأنا الفاتحة فى احتفال بسيط، وكان مطلوب منى تجهيز بيت الزوجية خلال أسابيع فقمت ببيع فدانين من الأرض وبدأت أستعد للزواج، وفى تلك الفترة كانت زوجتى قد بدأت تتحمل المسئولية كاملة عن الأولاد ولاتطالبنى بأكثر مما أرسله لها وحملت أيضا فى طفلنا الثالث فإذا بالشيء المفقود الذى طالما حلمت به وانتظرته ١٤ عاما يظهر فجأة فى حياتنا ودون سابق إنذار. فلقد بدأت زوجتى تحبنى ياسيدى لأول مرة وتعاملنى بحب وعاطفة صادقة وحنان!

وفى كل يوم يزداد الحب والعطف حتى أصبحت حياتى العائلية فى القاهرة حين أعود إليها نموذجا للحياة السعيدة التى أشتهيها كل هذه السنين!

وبدأت أفكر فى التراجع عن إتمام مشروع زواجى من الصبية الريفية الصغيرة ولكن بماذا أبرر إنهاء مشروع الزواج أمام المجتمع الريفى الذى أعيش وسطه هناك؟ فبدأت أؤخر إتمام الزواج بقدر الإمكان على أمل أن أجد مخرجاً كريماً منه وكنت آمل أن يرزقنى الله من زوجتى بولد فوضعت حملها فكان بنتاً ثالثة، وعرف المحيطون بى فى الأرض ذلك فتمنوا لى أن يهبنى الله الولد من «الزوجة الجديدة». فإذا بى أقدم على إتمام الزواج منها. وعلم بزواجى الجديد أبى ولم يلمنى بل هون علىّ الأمر ونصحنى بعدم إبلاغ زوجتى الأولى لأتجنب المتاعب.

وتدخلت الصدفة فى عدم وصول الخبر إليها فقد عدت إلى بيتى فى القاهرة بعد فترة فوجدت البواب يعطينى خطابا وصل منذ يومين باسم زوجتى، لا أعرف لماذا لم يسلمه لها فى يدها وفتحته فإذا به إخطار من المأذون لها بزواجى الثانى! فأخفيت الخطاب وتكتمت الأمر عنها. وبدأت أتنقل بين القاهرة والأرض وبين زوجتين وحياتين مختلفتين فى كل شىء.. فالزوجة الثانية ينحصر مفهومها عن الزواج فى خدمة زوجها وتربية أبنائها، وليست لها أى مطالب سوى الطعام العادى والملبس العادى وتحبنى بصورة غير عادية لأنى نموذج مختلف عن وسطها العائلى

وتحاول إرضائى بحسن الخدمة، وعدم إرهاقى بالمطالب.. وبعدم الطمع فى شىء وبعدم التدخل فى أمور حياتى الأخرى والزوجة الأولى موقفها معروف واعتزازها بأسرتها وتعليمها ومستواها الاجتماعى والمادى معروف. وكان دخل الأرض مازال غير كاف فبدأت مرة أخرى ببيع أجزاء صغيرة منها، جزءا وراء جزء إلى أن بعتها كلها واشتريت سيارة نصف نقل وسلمت لزوجتى مبلغاً كبيراً من ثمن الأرض لشراء شهادات تدر علينا دخلا ثابتاً فوضعت نصفه باسمها ونصفه باسمى ولم أغضب لذلك لأنها كانت قد أنفقت الكثير من ميراثها ومرتبها خلال السنتين الأخيرتين، ثم اقنعت أبى بأن أشرف على أرضه القريبة من أرضى السابقة لأتمكن من رؤية زوجتى الأخرى والطفلين اللذين أنجبتهما لى وهما ولد وبنت لكن زوجتى بدأت تضيق بسفرى المتكرر وتطالبنى بالتخلى عن أرض أبى للتفرغ لأسرتنا.. وتلمح بذلك لأبى، ولم تكن العلاقة بينهما طيبة فإذا به يصدمها بخبر زواجى الآخر، فوقع الخبر عليها كالزلزال، وطالبتنى بالطلاق على الفور ووافقتها مستسلما برغم أنى شرحت لها ظروفى التى دفعتنى إليه كاملة.

واتفقنا على أن أترك معاشى من وظيفتى السابقة والمسكن والسيارة، وبدأت فى استخراج شهادة زواج جديدة لكى يتم الطلاق لأن قسيمة الزواج الأصلية كانت مفقودة، واستخرجت الشهادة بعد أسبوع وانتظرت زوجتى فى الموعد المحدد للذهاب

إلى المأذون لإتمام الطلاق، وجاءت فإذا بى أرى أمامى زوجة محبة والهة برغم أنها مجروحة فى كبريائها وعواطفها وقالت إنها برغم جرحى لها كانت تفتقدنى بشدة وتريد أن تشكونى إلىَّ وتتكلم معى طويلا وعدت معها إلى البيت لنتكلم بصراحة عن حياتنا، فأمضينا أربعة أيام كاملة لم نغادر البيت، لم نكف طوالها عن الكلام عن كل شىء فى حياتنا منذ أول لقاء لنا حتى آخر موقف ولم نكد ننام فيها إلا ساعات قليلة، وطلبت منى أن نحاول الحفاظ على حياتنا وماضينا ومستقبلنا وكانت شروطها أن أطلق زوجتى الأخرى وأتخلى عن أرض أبى وأقاطعه وأن أبقى معها فى القاهرة وأحاول البحث عن أى عمل فيها وأن أرعى بيتنا وبناتنا وأهتم بمظهرى، وأن نعيش فى حدود مرتبها وعائد الشهادات التى وضعتها باسمها - بعد أن بددت أنا معظم ماكان باسمى فى أرض أبى وأشياء أخرى - والمعاش إذا تعذر إيجاد عمل لى فإنها تعرض علىَّ ميراثها لأشارك به أحد أشقائها فى أى مشروع مناسب. وفكرت كثيرا فوجدت أن التخلى عن أرض أبى التى وضعت فيها مابقى لى من مدخرات أمر صعب، ومقاطعته أيضا غير مقبولة وطلاق زوجتى الأخرى بعد أن أنجبت لى بالفعل ولدا وبنتا حرام لأنه لاذنب لها فيما حدث، كما أنه تصحيح لخطأ بخطأ آخر، وسينتج عنه أن يتربى أبنائى منها فى بيئة غير ملائمة بعيدا عنى، كذلك فإن كرامتى لاتسمح لى باستثمار ميراثها فى مشروع قد ينجح وقد يفشل وهو مبدأ مرفوض، كما أنى لا أستطيع أن أعيش

شبه عالة على زوجتى حيث إن دخلى الآن لايزيد على ٤٠٠ جنيه أرسل ١٥٠ جنيها لزوجتى الأخرى فلا يزيد إسهامى فى حياة أسرتى الأولى وبناتى على ٢٥٠ جنيهاً وهو ربع احتياجات الأسرة تقريباً. وبعد أسبوع من التفكير المتصل عدت إلى زوجتى بردى وهو أن ما تطلبه منى مستحيل التنفيذ للأسف، فتركتنى لتستشير أهلها وانتظرت عودتها. ففوجئت بها تعود إلىَّ بعد ساعات، وتبلغنى بانكسار شديد لم أرها فيه من قبل أنها توافق على قبول الأمر الواقع لفترة محددة كتجربة وبعد ذلك تتخذ قرارها ووافقت سعيدا بظهور بارقة أمل مؤقتة فى حل الموقف.. وقررت زوجتى أن تؤدى العمرة آملة أن تعود منها وقد استقرت على الرأى السديد فى حياتنا، وقد اقترحت عليها أن نكتب إليك ونستشيرك فى مشكلتنا ووافقت هى وبدأت أكتب لك وبدأت هى أيضا تكتب لك، وخلال ذلك عرفت أنها صارحت أمها بما حدث وكنت أتمنى ألا تفعل لأحتفظ بصورتى الطيبة لديها، فقالت لها أمها إنها تعرفها جيدا وتعرف أنها لن تستريح إلا إذا «قطعت العرق وأسالت الدم».

أى إذا حسمت الأمر ونجحت فى قطع رابطة الزوجية بينى وبين الأخرى.

فماذا تقول لى ولها فى مشكلتنا؟

□ ولكاتب هذه الرسالة أقول:

للمفكر الفرنسى مونتسكيو كلمة يقول فيها: «ليس هناك

شخص لايزوره الحظ السعيد ولو لمرة واحدة فى حياته لكنه إذا لم يجده على أهبة الاستعداد لاستقباله فإنه يدخل من الباب ويخرج من النافذة!»

وأنت ياصديقى قد زارك الحظ السعيد بعد طول انتظار حين تفجرت شرارة الحب فجأة فى قلب زوجتك، وبدأت تبادلك مشاعرك العاطفية، وأصبحت حياتك العائلية معها حياة مثالية كما تمنيتها من قبل طوال ١٤ عاما، فلماذا أضعت هذه الفرصة الذهبية.. ولماذا لم تعدل عن مشروع زواجك الثانى فتنعم معها بالاستقرار العائلى والعاطفى. ومن يدرى فلربما كان قد أطلق ملكاتك وساعدك على تحقيق النجاح الذى تسرب من بين يديك أكثر من مرة؟

نعم لماذا ـ وقد تحققت الأمنية الغالية أخيرا ـ أثقلت نفسك ومشاعرك ومواردك المحدودة بزوجة جديدة وأبناء جدد وبالتخبط بين بيتين وحياتين وبيئتين متنافرتين؟ هل تعرف السبب الحقيقى وراء ماصنعت بنفسك وبحياتك بإقدامك على هذا الزواج الثانى غير المتكافىء بالمرة؟

إنه حلم إنجاب «الولد» بعد البنات للأسف.. ولو كانت زوجتك الأولى قد وضعت حملها الثالث «ولدا» لما أتممت هذا الزواج العجيب، ولوجدت ألف سبب للاعتذار لوالد الصبية الريفية عن عدم إتمام المشروع لكن الإنسان معذب برغباته وأمنياته دائما ولا

حد لمطالبه من الحياة للأسف! لقد كنتُ متعاطفا معك طوال النصف الأول من رسالتك، لكنك فقدت تعاطفى فى اللحظة التى مضيت فيها فى مشروع الزواج الثانى بدافع الرغبة المحمومة فى إنجاب الولد مع أن هذا الأمل كان قائما أيضاً من زوجتك الأولى حتى اللحظة الأخيرة لأن الرجل هو الذى يحدد نوع الجنين وليست المرأة كما قلنا مرارا وتكرارا.

وهكذا أسهمت فى تعقيد ظروفك ومضاعفة مسئولياتك وأسأت إلى نفسك وإلى زوجتك الأولى وبناتك بهذا الزواج غير المتكافىء.

أما أخفاؤك أمر هذا الزواج على زوجتك الأولى وتحايلك على إبقائه سرا فهو خطأ آخر فى ميزان أخطائك، ولقد كان الإنصاف يطالبك بإبلاغها به فى حينه أو على الأقل بعدم التحايل على حجبه عنها لترى رأيها فيه وتختار لنفسها الاستمرار معك أو الانفصال عنك. فحجب المشكلات أو تأجيلها.. لايسهم أبداً فى حلها أو فى تخفيف آثارها وإنما يزيد من تعقيدها فتتضخم تحت السطح كما يتضخم جبل الجليد تحت الماء فما تدرى السفينة إلا وقد اصطدمت به وانشقت نصفين أمامه!

والآن ياصديقى فقد اصطدمت سفينة حياتك العائلية الأساسية بهذا الجبل الرهيب وتوقفت أمامه.. فأين المفر؟

لقد كتبت لى زوجتك رسالة طويلة لاتختلف كثيرا فى روايتها للوقائع عما رويته أنت لى لكنها تفيض فى التعبير عن مشاعرها

وما تحس به من معاناة نفسية لخداعك لها سبع سنوات كاملة.. وفى تأكيد مشاعر حبها لك الذى انتفض عملاقا منذ سنوات، ثم فى تأكيد أيضا استحالة قبولها للأمر الواقع والتعايش معه، وتخلص من رسالتها إلى أن الحل الأمثل للمشكلة هو أن تطلق الزوجة الثانية وتدع طفليك لديها وترسل لها مبلغا عادلا كل شهر. وقد روت أنك وافقت على ذلك. ثم عجزت عن تنفيذه.

ورأيى أنه لاداعى لطلاق زوجتك الأولى ولا زوجتك الثانية.. ذلك لأن خطأك قد استعصى على الإصلاح الآن.. وأصبحت أى محاولة لإصلاحه تنذر بضرر أكبر لأحد الطرفين: الزوجة الأولى.. أو الثانية.. فحسمك للمشكلة كما فهمت من رسالة زوجتك الأولى بطلاقك لها خطأ أبشع من خطأ زواجك الثانى، وطلاقك للزوجة الثانية البسيطة التى تزوجت بولاية أبيها ولم تتصور أنها ترتكب شيئا خطأ لايقل بشاعة الآن عن خطأ زواجك منها لأنه يشرد طفلين بريئين، ويحرمهما من حقهما العادل فى أن ينشأ نشأة أفضل تحت رعايتك.

إنه وضع شديد التعقيد كوضع المصاب الملقى فى الطريق والذى يؤدى تحريكه أية حركة خاطئة إلى تعريضه لخطر أكبر مما أصابه.. ولامفر فى مثل هذا الوضع الشاذ من بقاء الحال على ماهو عليه وترويض النفس على قبوله برغم شذوذه وغرابته، ولامفر أيضا من مطالبة زوجتك الأولى بأن تنظر إلى الأمر كله نظرة أكثر شمولا ورحمة بهذين الطفلين البريئين فأمهما ليست

مؤهلة فعلا لتنشئتهما وحدها تنشئة أفضل، وهما فى النهاية أخوان لفتياتها الثلاث شئن ذلك أم أبين.. ولأن ينشأ نشأة فاضلة وصحيحة برعاية أبيهما أفضل كثيرا لبناتها فى المدى البعيد من أن يظهرا فى حياتهن فجأة فى المستقبل، وهما على حال من الجهل وربما الانحراف يثير خجلهن أو يحط من أقدارهن لدى أزواجهن ولدى الآخرين.. لهذا لامفر من أن يتحمل الأب مسئوليته عنهما ولو لم تكن قد أنجبت من زوجتك الثانية هذه لما ترددت لحظة فى تأييد زوجتك الأولى فى شرط طلاقك للأخرى مع تعويضها التعويض العادل.

فأعيدا معاً التفكير فى الأمر كله.. على هذا الضوء، واتركا للأيام فرصتها العادلة لأداء دورها فى هذه المشكلة فهى وحدها القادرة على إيجاد الحل «المثالى» لما تعجز العقول أحيانا عن فهمه أو استيعابه.. ناهيك عن حلّه حلا مثالياً.. وشكراً!

١٦

الشىء الغامض!

«الضمير الحى قد تصيبه أحياناً غاشية فيغفو قليلاً أو يتغافل لكنه لايموت أبداً، بل يستعيد عافيته - بعد قليل - ويحاسب نفسه عن اختيارتها، ويردها إلى الصواب».

أنا سيدة نشأت فى أسرة متوسطة بين أبوين فاضلين وشقيقين يكبراننى، وعشت حياتى فى هدوء حتى التحقت بكلية مرموقة، وتقدمت فى سنوات التعليم الجامعى حتى قاربت على نهايتها دون أن يجذب نظرى أحد من زملائى أو يخفق قلبى لأحد برغم أنى قد تعرفت ببعض الزملاء وتشاركنا فى بعض الرحلات والأنشطة الجامعية وفى عامى الأخير بالجامعة، اقترب منى أحد الزملاء أكثر من غيره.. وأحسست باهتمامه الخاص بى. وبإحساس طالبة جامعية توشك أن تودع الجامعة وتستشعر القلق لعدم ارتباطها بمشروع زواج مع أحد وجدت نفسى أكثر استعداداً لتقبل اهتمامه بى عن السنوات الماضية.. ويوما بعد يوم بدأت أستجيب لمشاعره.. إلى أن فاتحنى برغبته فى الارتباط بى قبل امتحان العام الأخير بأيام.. ووجدت كل ظروفه ملائمة فهو مثلى من أسرة متوسطة، ووالده موظف محترم ووالدته ربة بيت من أسرة طيبة، وله شقيقتان أصغر منه.. وهو إنسان جاد ومستقيم ومتفوق فى دراسته ويتصرف مع الجميع برجولة. وبعد أداء الامتحان وظهور النتيجة ونجاحنا معا اتصل بى فى بيتى يطلب موعدا لزيارة أسرتى، وجاء مع أسرته وطلب يدى وخلال فترة الخطبة تفتحت مشاعرى الحقيقية له. وأحببته بجنون ووجدته إنسانا طيبا وعطوفا ومتيماً بى، وتعاونا معاً على تكاليف الزواج بغير إرهاق لأحد الطرفين وعمل خطيبى بسبب تفوقه فى وظيفة مناسبة لتخصصه بإحدى الهيئات وعملت أنا فى هيئة أخرى فى

نفس التخصص بعده بقليل، وبعد عامين من الخطبة تزوجنا وانتقلنا إلى عش أحلامنا السعيدة، وأنجبت طفلتى الأولى بعد عام من الزواج ثم أنجبت طفلين بعدها ، وأصبحت أسرتنا الصغيرة هى واحة زوجى التى لا يرتاح إلا فيها، وبرغم معاناتى من الجمع بين عملى وبين رعاية الأطفال الثلاثة وهم فى أعمار متقاربة، فقد حرصت دائما على الا أقصر فى واجباتى تجاه زوجى العاشق الذى لا يكف عن إعلان حبه لى فى كل مناسبة، وفى وسطنا العائلى وبشكل كثيرا ما أسعدنى وأثار فخرى واعتزازى، فحرصت دائما على ألا أبدو أمامه إلا فى أجمل صورة وأنا جميلة إلى حد كبير والحمد لله. وحرصت على الاستجابة لكل اللمسات الشاعرية التى يحبها زوجى ويرتاح إليها وعلى تلبية كل دعوة منه للخروج وحدنا فى المساء لتناول الطعام.. أو زيارة الأصدقاء.. أو حضور حفلة أو مناسبة، أو حتى المشى فوق كوبرى ٦ أكتوبر وتناول الآيس كريم فى أى محل فى الطريق فأودع أطفالى الثلاثة بيت أمى.. وأرتدى أجمل ملابسى وأخرج معه وألحظ بسعادة سروره وفخره بى، وارتياحه لوجودى معه.. وحين كبر الأطفال وتحسن دخلنا.. حرصت على الاستعانة بشغالة بأجر أقتطعه من مرتبى.. لكى تخفف عنى متاعب البيت وتتيح لى وقتا أطول لقضائه مع زوجى الذى لم أعرف رجلا غيره فى حياتى، وتعودت الا أخفى عليه شيئا من شئون عملى أو أسرتى، وكان هو أيضا لا يخفى علىّ شيئا، ويصارحنى بكل صغيرة وكبيرة فى حياته، حتى

أصبحت أنظر للحياة بعينيه وأكره من يكرههم وأحب من يحبهم.. وأعرف عن زملائه وعمله كل شىء.. وأعرف من يدبرون له الدسائس فى عمله.. ومن يتعاملون معه بشرف، وأعيش معه كل مشكلة من مشكلات العمل بتفاصيلها حتى تنتهى وأشد من أزره وأنصحه بما أراه فى صالحه.. وأوفر له الجو الهادىء للعمل فى البيت وأبعد عنه الأطفال حين ينشغل بعمل إضافى. وبسبب كفاءته وجديته فى العمل ارتقى فيه سريعا.. وحقق لنفسه مركزا مرموقا، وتقدمت أنا أيضا فى عملى لكنى لم أحقق فيه ما حققه هو فى عمله من نجاح بسبب كفاءته وكفاحه فسبقنى فى الترقية للمنصب الأعلى، وأصبحت له غرفة مكتب مستقلة وسكرتيرة ومساعدون، ومضى خمسة عشر عاما على زواجنا حققنا خلالها أكثر مما حلمنا به لأنفسنا من نجاح وحب وسعادة، فانتقلنا إلى شقة جميلة فى حى آخر، وأعدنا تأثيث مسكننا بما يتلاءم مع مركزنا الاجتماعى الجديد، ورأيت أن وضعه قد أصبح يفرض عليه أن يمتلك سيارة ملائمة.. فبعت مصوغاتى واقترضت مبلغا من شقيقى الأكبر ودفعت ما جمعته كمقدم لسيارة اشتريتها باسمه على أن يدفع هو أقساطها.. وفاجأته بالخبر عند توقيع العقد.. ولم أقبل اعتراضه على شراء السيارة باسمه، وأصررت على ذلك وسافرنا بها إلى المصيف.. وأصبحنا نخرج بها معا فى الأمسيات.. ونذهب إلى النادى وبيت أسرتى.

وفجأة يا سيدى وجدت زوجى العاشق يبدى فتورا عجيبا

نحوى، فلم يعد الزوج المحب الذى عرفته ملهوفا علىّ منذ فاتحنى برغبته فى الارتباط بى فى عامنا الأخير بالكلية ولم يعد الصديق العطوف الذى لا يستريح فى مكان إلا إذا كنت إلى جواره فيه. وبدأ يتأخر فى العودة للبيت، ويمضى معظم ساعات اليوم فى العمل. ويخرج فى المساء كثيرا ويعتذر عن اصطحابى معه بأعذار مختلفة.

وحرت فى فهم أسباب تغيره تجاهى، وراجعت تصرفاتى معه عسى أن أكون قد أغضبته فى شىء فلم أجد فيها ما يبرر هذا التغير إذ لم نختلف على شىء ولم تشهد حياتنا طوال ١٥ عاما سوى بعض الخلافات العابرة البسيطة التى لا تخلو منها حياة زوجية، ولم يطل خلاف منها عن بضع ساعات يبدأنى بعدها بالاعتذار أو الكلام أو أبدأه أنا به، أما الآن فقد حل الفتور والصمت بينى وبينه بلا سبب واضح، وأصبح لا يبدأنى بكلام.. ولا يتحدث معى إلا إذا بدأته بالحديث، ويبدو مهموماً بشىء غامض ومحرج لسبب لا أدريه وتوقعت أن يفاتحنى بما يشغله.. فلم يفعل فسألته عما به فلم يجبنى سوى بأنه مهموم بمتاعب العمل وبأننى قد تعودت على أن يعزف لى باستمرار أنغام الحب فإذا توقف عنها للحظات لانشغاله بهموم العمل أو الحياة تصورت أنه قد تغير، ولم أقتنع بهذا التفسير ومع ذلك فقد تظاهرت بقبوله، وتعاملت معه بطريقة طبيعية.. وإن كنت لم أكف عن محاولة اكتشاف أسباب تغيره، وبعد مفاتحتى له بأيام طلب منى زوجى

لأول مرة منذ زواجنا أن يبيت فى غرفة مستقلة لأنه يريد أن ينفرد بنفسه لفترة من الزمن. وبرغم تألمى لهذا الطلب الغريب إلا أننى وافقته عليه على أمل أن يساعده ذلك على استعادة نفسه، والعودة لحالته الطبيعية. واضطررنا - لإيجاد غرفة نوم جديدة فى مسكننا - إلى أن نقسم غرفة الأولاد إلى قسمين بحاجز من الخشب وإلى شراء فراش ودولاب جديدين، وأصبحت لزوجى غرفة نوم مستقلة انتقل إليها، وواظب على النوم فيها بعيدا عنى.

ودام هذا الحال بضعة شهور لم يقترب خلالها منى بأى شكل من أشكال الاقتراب، ولم نخرج معا إلى سهرة عائلية.. وظل زوجى خلالها مهموما بالشىء الغامض الذى لا أعرف كنهه، ويتفادى التقاء نظراتنا وأشعر بأنه يعانى من إحساس بالخجل منى. وأدركت بغريزة المرأة أن هناك «أخرى» قد ظهرت فى حياته، وأنه يعانى من التمزق بينى وبينها ويحس تجاهى بالذنب. ولأنى أعرف زوجى جيدا وأعرف أخلاقياته واستقامته وتدينه فلقد أدركت عمق أزمته وهو الإنسان الجاد المستقيم الذى لا يعرف الخداع.. ولا يستطيع التظاهر بغير ما يحس، ولا يستطيع «العبث» مع أى امرأة لتدينه وخوفه من ارتكاب معصية، فإذا كان قد «عرف» فتاة أو سيدة أخرى.. فلابد أنه قد وقع فى غرامها ويحاول أن يجد مخرجا من أزمته بطريقة شريفة. وفكرت ماذا أستطيع أن افعل لأنقذ سعادتى من هذا الهجوم الغادر عليها.. وبدأت أتقصى أخباره بحذر.. فإذا بى أعرف أن قصته شائعة فى

جهة عمله وعلى ألسنة زملائه الذين يتأسفون لما أصابه من اضطراب لا يليق برجل جاد مثله، ويروون كيف أن فتاة تصغره بـ ١٧ عاما قد عينت منذ عام بإدارته.. ونصبت شباكها حوله لما رأته من سمعته الطيبة ومكانته فى العمل.. فبدأت تبدى اهتمامها به.. وتستشيره فى مشكلاتها الخاصة.. ثم طلبت مساعدته لها فى امتحان القسم الأول من الماجستير الذى ستتقدم إليه فساعدها بشهامته المعروفة عنه حتى نجحت فى الامتحان وبدأت تعد رسالتها، ثم صارحته بأنها قد أحبته، وترى فيه فتى أحلامها برغم أنه زوج وأب لثلاثة أبناء.. وعلمت أن زوجى قد قاومها فى البداية طويلا، وحاول تحديد علاقتها به فى إطار العمل.. ثم انهارت مقاومته.. وأصبحت هذه الفتاة التى لا ضمير لها هى شغله الشاغل التى يخرج معها لقضاء مصالحها وحل مشكلاتها الكثيرة.. ويذهب معها إلى كليتها ليوصى عليها زملاءنا القدامى الذى ساروا فى سلك التدريس الجامعى، واضطربت أحواله فى العمل.. وفى البيت.. وفى كل مكان. ووقفت مشدوهة أمام ما سمعت.. وأصارحك بأننى لم أغضب من زوجى لانزلاقه فى هذه القصة بقدر ما غضبت من هذه الفتاة المستهترة التى لم تتورع من إغواء زوج وأب لثلاثة أطفال ورجل معروف فى عمله بالاستقامة والجدية، إرضاء لرغباتها وأطماعها الحقيرة.. وقررت الا اتخلى عن زوجى فى محنته وبذلت كل جهدى لأن أستعيده بغير أن أحرجه أو أسىء إليه، أو أجرح مشاعره، وتشاورت مع شقيقىَّ

اللذين يحبانه ويحترمانه فيما أفعل واتفقنا على أن أحاول اجتذابه إلىَّ ليعود كما كان مع محاولة إبعاده بقدر الإمكان عن هذه الفتاة. وعانيت الكثير لكى لا أجرح مشاعره أو أثور عليه وهو يعود إلىَّ فى المساء بعد يوم طويل أمضاه معها.. فيتفادى نظراتى إليه ويجلس مع أولاده مطأطىء الرأس ويتشاغل بالحديث معهم لدقائق.. ثم ينسحب إلى غرفة نومه بدعوى أنه مرهق وسينهض من النوم مبكراً. وبرغم جرحى الشخصى منه فقد احتفلت بعيد ميلاده وقدمت له سلسلة مفاتيح ذهبية محفورا عليها تاريخ اليوم الذى اعترف لى فيه بحبه ونحن طالبان بالسنة النهائية فى الجامعة فتقبلها شاكرا وهو خجلان وأخيرا ضقت بصبرى وانتظارى فقررت مواجهة غريمتى لإقناعها بالبعد عن زوجى والاختفاء من حياته، وتحايلت حتى حصلت على رقم تليفونها، واتصلت بها وحدثتها بكل رقة ورجوتها أن تبتعد عن زوجى وألا تحرم أبناءه منه وألا تلعب بمشاعره وهو الرجل الصادق الذى لا يعرف الخداع وهى الفتاة الصغيرة التى تستطيع أن تجد بسهولة من يحبها ويتزوجها دون أن يكون مثقلا بزوجة وأبناء، وبكيت وأنا أكلمها وأرجوها فلم تجبنى بكلمة مريحة واحدة ولم تزد إجابتها على كلمات من نوع: ولماذا لا تقولين له هو هذا الكلام؟ أو: وماذا بيدى أن أفعل هل أضربه وأرغمه على العودة لك؟

ولم أجد جدوى من الحديث معها فأنهيت المكالمة شاكرة ومعتذرة لها عن إزعاجها.. وفى اليوم التالى رأيت وجه زوجى

يتضرج بالاحمرار كلما نظرت إليه، فكدت أثور عليه وأنفس عما فى صدرى لكنى أشفقت عليه من خجله وحرجه وانكساره أمامى فلم أفعل. وبرغم يأسى منها فقد كررت معها المحاولة مرة أخرى فكانت أكثر جراة علىّ من المرة الأولى، وقالت لى بوقاحة تحسد عليها إن زوجى ليس «سعيدا» معى.. وإننى لم أسعده، ومن حقه أن يبحث عن سعادته حيث يجدها. فوضعت السماعة وأنا أشعر بالحمى، وبالفعل مرضت بعدها وارتفعت درجة حرارتى وأمضيت يومين عليلة فى الفراش واسانى خلالهما زوجى وهو يتفادى نظراتى أيضا.. ووضع يده على جبهتى ليجس حرارتى فكانت المرة الأولى التى يلمسنى فيها منذ عام طويل!

وتكررت بعد ذلك أزماتى الصحية.. وأصبح الصداع وارتفاع ضغط الدم يلازمانى بصفة شبه دائمة.. ولاحظ أهلى سوء حالتى النفسية والصحية.. فبدأ شقيقاى يطالبانى بحسم موقفى من زوجى حتى لا أظل فريسة للمرض بلا طائل وعرض علىَّ شقيقاى الأمر بصورة واضحة.. فإما أن أستمر فى حياتى مع زوجى من أجل الأبناء ولكن دون معاناة نفسية وصحية إلى أن يعود إلى رشده حين يأذن الله له بذلك، وإما أن أواجهه وأطلب الانفصال منه.. وأتزوج غيره إذا رغبت فى الزواج ولن يكون الأبناء مشكلة فى طريق زواجى لأنهم جميعا فوق سن الحضانة وسيكون زوجى ملزما برعايتهم. وفكرت فى الأمر طويلا.. فلم أتوصل إلى حل مريح فلا أنا قادرة على الاستمرار فى هذا الوضع مع تجنب

المعاناة النفسية كما يطالبنى شقيقاى ولا أنا قادرة على اتخاذ قرار المواجهة والانفصال وبدء حياة جديدة مع رجل آخر غير زوجى الذى لم أعرف رجلا سواه ولم أحب رجلا سواه ولا أتصور أن يكون فى حياتى رجل غيره بعد أن بلغت الثالثة والأربعين منذ أيام. ولا زوجى الغائب الحاضر يعود من «غيبته الطويلة» ويرجع كما كان زوجا وعاشقا وأبا مثاليا لأولاده. وقد زاد من معاناتى ما علمته من أنه سازال مستمرا مع «الفاجرة» الأخرى.. وأن المشكلة التى تواجههما لتتويج الحب والزواج هو رفض أسرتها القاطع لقبوله زوجا لابنتهم بسبب ظروفه الاجتماعية وفارق السن فى حين تصرّ هى على الزواج منه وتبحث بجد - ويبحث هو معها - عن فرصة عمل لها فى الخارج لكى تضرب عرض الحائط بمعارضة أبويها وتعقد قرانها عليه وتسافر وتستدعيه للحاق بها فهل تصدق ذلك يا سيدى. وهل تصدق أن ينقاد زوجى العاقل المحترم المحبوب من كل من يعرفه لرغبات هذه الفتاة المستهترة التى تريد أن تهدم بيتا كان سعيدا لمجرد أن تنتصر علىّ فى هذه المعركة الشائنة؟ إن زوجى مازال فى عزلته وصمته وخجله.. يؤدى واجباته المادية والاجتماعية تجاهى وتجاه أطفاله فى صمت ولا يعارضنى فى شىء.. لكنى أشعر أننى أعيش أيامى الأخيرة معه وأنه سوف يختفى من حياتى فى أية لحظة فساءت صحتى وبدأ جمالى الذى بهر زوجى فى السابق يذوى ويضمحل.. وظهرت الدوائر السوداء تحت عينى بسبب الأرق

وأقـراص الصـداع والمهـدئات.. فـبـمـاذا تنصـحنى أن أفـعل يا سـيـدى.. هل أسلم الراية.. وأنسـحب وأطلب الطلاق.. أم مـاذا أفعل؟

□ ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

لزعيم الهند الفيلسوف المهاتما غاندى عبارة حكيمة تقول إن من يسيطر على نفسه يصبح حرا كملك الغابة وتخترق نظراته الحادة عدوه! وهذا صحيح تماما يا سيدتى.. فلقد فقد زوجك سيطرته على نفسه إزاء هذه الفتاة الجريئة ففقد معها حريته.. ولم تعد نظراته تردع أحدا وتبعده! ويبدو أنه ـ وهو الرجل الصادق مع نفسه ـ قد تحول بطوفان المشاعر العاطفية المتأجج دائما فى داخله والذى طالما أغرقك به من قبل إلى هذه الفتاة الصغيرة، وسلم قياده لها بعد طول تردد أمام الاعتبارات الاجتماعية والعائلية المألوفة.

وربما يكون أحد أسباب هذا الانهيار المفاجىء أمام الإغراء هو أن الأخرى هى التى قد «بادرته» بمشاعرها سواء أكانت صادقة أو مزيفة، فأتاحت له أن يمارس إحساساً لم يجربه من قبل وهو أن يكون «محبوبا ومطلوبا» لا محبا وطالبا كما كان معك فى بداية قصتكما معا، حتى تفجرت شرارة الحب فى قلبك تجاهه، وربما أيضا فى مجمل علاقته بك. والرجل ياسيدتى خاصة فى محنة منتصف العمر قد يفقد سيطرته على نفسه أمام من تشعره بأنها

تحبه «لشخصه» الفريد، وليس لأية اعتبارات عائلية أو مسئوليات أسرية وبأنها تتحدى الصعاب للفوز به.. وتواجه سخط الآخرين من أجله.. فيراجع نفسه مختالا وطروبا بما يرى ويلمس.. ويرى «منصفا» أن الأخرى تقدم له أدلة عملية على صدق مشاعرها تجاهه وتضحيتها من أجله فيقتنع بها بعد الرفض وقد يحمل لها فى البداية نوعا من الإحساس بالعطف.. أو الاعتزاز «بحبها» له ثم يغرق تدريجيا فى حبها.. ولايمضى وقت طويل حتى يفقد سيطرته نهائيا على نفسه، ويسلم إليها زمامه.. ثم يدفع ثمن تجربته وضعفه غاليا من سعادته الحقيقية وسمعته واحترام الآخرين له.. وأيضا من احترام أبنائه وحبهم له.

وليس من الغريب أن تصادف هذه المحنة أيضا حتى من يتعذر عليهم أن يجدوا مبررا للوقوع فيها من تعاسة زوجية أو خلافات مستديمة مع شريكة العمر كما يبرر البعض لأنفسهم وقوعهم فى هذا الشرك بمثل هذه المبررات؛ فالنفس البشرية لغز لم تفك بعد كل طلاسمه.. والإنسان ضعيف دائما أمام من يطارده بمشاعره الصادقة أو المزيفة فيحرك فيه الرغبة الكامنة فى الاستمتاع بحب الآخرين له وتقدير الذات نتيجة لذلك والاعتزاز بها والإحساس بتميزها وتفردها.. والمغريات كثيرة حول الجميع رجالا ونساء دائما.. فلماذا إذن يضعف البعض أمام نداء الإغراء.. ويصمد له آخرون حتى النهاية؟..

ليس هناك من تفسير لذلك سوى فى اختلاف قدرات البشر

على السيطرة على أهوائهم ورد النفس عما لايحق لها أن تفعله حتى ولو كان يلذ لها ويطيب. وأيضا فى اختلاف نظرة الأشخاص إلى السعادة وحقهم فيها، فمن البشر من لا يريدون على تصرفاتهم أى قيد فى طلب سعادتهم حتى ولو ترتب عليها شقاء الآخرين. ومنهم - وهم الأغلبية العظمى من البشر والحمد لله - من لا يسمحون لأنفسهم بطلب سعادتهم على حساب شقاء الأعزاء.. وواجباتهم تجاههم، وعشرات الاعتبارات الأخرى. ولهذا فلابد دائما من مغالبة النفس وردها عما لا يليق بها ولا يحق لها أن تطلبه بغير مراعاة لاعتبارات الآخرين.

والواضح أن هذه الفتاة الجريئة ممن لا يريدون على تصرفاتهم أى قيد فى طلب السعادة .. وأن زوجك على الناحية الأخرى مازال يعانى من تمزقه بين واجبه تجاهك وتجاه أبنائه، وبين ما تصور أنه «الحب الناضج» الذى صادفه فى سن الرجولة والكمال وقد لا يصادفه بعد ذلك إلى نهاية العمر إذا تركه يفلت من بين يديه كما يقول بعض الرجال والنساء لأنفسهم فى مثل هذه الحالة. وهذا التردد نفسه علامة طيبة على أنه لم يحرر إرادته بعد من كل القيود الإنسانية والعائلية والاجتماعية، وينطلق وراء ما يتصور فيه سعادته كما يفعل من لا تحركهم سوى أهوائهم.

ولأنى استشعر فى رسالتك عمق حبك واحترامك له بل

وإشفاقك عليه أيضا مما يعانيه، فإنى لا أرى لك الانسحاب من حياته.. وتسليمه هدية خالصة الثمن لهذه الفتاة الجريئة على الأعراف والتقاليد، إذ لن يستفيد من هذا الانسحاب سواها.. ولن تتردد - مع قدرتها على الخروج على المألوف - عن أن تحل مكانك فى بيتك.. وبين أبنائك، وإنما أرى لك أن تساعدى زوجك على الشفاء من مرضه الغامض بهذه الفتاة وهو فى سن الحكمة والنضج، وأن تواصلى الوقوف إلى جواره وتعينيه على اجتياز هذه المحنة التى تهدد صورته فى أعين أبنائه الثلاثة!

ولقد احترمت فيك كثيرا تعففك عن جرح مشاعره وإهانته وإحراجه احتراما لتاريخه السابق معك.. والحق أنه يحتاج إليك الآن بأكثر مما كان فى أى وقت مضى. ولولا أنى أخشى أن تؤدى المواجهة الصريحة معه إلى إسقاط حاجز الخجل والإحراج الذى يمنعه من إعلان رغباته غير مبال بآثار ذلك عليك، لنصحتك بمواجهته بالموقف كله مواجهة صريحة، ومطالبته بقطع كل صلة له بهذه الفتاة ونقلها من إدارته، وتخييره بينك وبينها.. لكنى أخشى مع ظروفه وعمق أزمته إن نصحتك بذلك أن يساعده ذلك على التحرر من هذا الحاجز الأخير، فيصارحك بما لا تودين سماعه، لهذا فلن أنصحك هذه المرة بالمواجهة الصريحة الشاملة معه.. وإنما بالمواجهة عن بعد وبغير مصارحة كاملة ولا حديث مباشر يضع النقط فوق الحروف بلا مواربة مع الحفاظ على حاجز

الخجل والحرج المفيد حاليا فى منع تدهور الموقف أكثر مما حدث.. وسأنصحك بأن تؤكدى له بوضوح لا يحتمل أى شك أنك لن تفرطى فيه أبدا ليس لأنه والد أطفالك الثلاثة، وإنما لأنه حب عمرك كله وشبابك وكل ما يربطك بالحياة الذى لا تتصورين لنفسك حياة بعيدة عنه.. وأن ترددى له دائما أنك تثقين بضميره الذى سيهديه فى الوقت المناسب إلى أن حبك له هو الحب الحقيقى المبرأ من الغرض والجدير بالحرص عليه أكثر من أى شىء أخر فى الحياة، وبذلك تنقلين عبء القرار ومسئوليته إلى ضميره هو وتحرميه بذلك من أن يجد مبررا منطقيا واحدا يبرر به ظلمه لك وغدره بك وبأبنائك إذا أراد ذلك، والضمير الحى قد تصيبه أحيانا غاشية فيغفو قليلا أو يتغافل لكنه لا يموت أبدا وإلى النهاية بل دائما يستعيد عافيته بعد قليل ويحاسب صاحبه عن اختياراته فى الحياة ويرده إلى الصواب. وزوجك ـ كما فهمت من رسالتك ـ من أصحاب الضمائر الحية.. والطبع المستقيم. لهذا فلن يطول شروده بعيدا عنك ولن يطول «ذهول» قلبه أمام هذه الفتاة المقتحمة التى أنصحك بألا تتصلى بها أبدا، وألا تمتهنى نفسك باستعطافها أو الحديث إليها. فحل مشكلتك فى يد زوجك وليس فى يد أحد سواه.. ولأنك تحبينه وتحترمينه وتتمسكين به.. فلن تجدى غضاضة فى أن تحاربى معركتك هذه بكل ما تملكين من حكمة ونضج وحب لحماية زوجك وإنقاذ سعادتك وسعادة أبنائك.. وسيكون الخيار لك فى النهاية يا سيدتى.. فإذا عجزت

عن الاستمرار فيها لفترة طويلة أو إذا لم تؤت بثمارها المرجوة بعد وقت مناسب فلا لوم عليك فى النهاية إذا اخترت الطريق الآخر والمواجهة العاصفة.. وطلب الانفصال، لكننى أثق أنك لن تحتاجى إليها وستكون الجولة الأخيرة لك فى الصراع بينك وبين الغازية المقتحمة.. وسيعود طائر الحب والأمان ليغرد فى عشك بعد هذه المحنة الطارئة.. وكما كان الحال قبل هذه العاصفة.. بإذن الله..

١٧

الشيء الواضح!

«إن صاحب المروءة والدين إذا أحب زوجته أعزّها وأكرمها. وإذا كرهها لم يظلمها، ولم يؤذ مشاعرها بما تكره».

شجعنى ما قرأته فى بريدك تحت عنوان« الشىء الغامض» للسيدة التى تشكو مما أصاب زوجها الفاضل المحترم بين الأهل والزملاء من تغير غامض تجاهها لتجد نفسها معه فى مفترق طرق حاسم فى حياتها.. شجعنى ذلك على أن أكتب لك عن «الشىء الواضح» وليس الغامض فى حياتى الآن والذى يجعلنى الآن فى مرحلة فاصلة من حياتى.. أرجو أن تشاركنى الرأى والمشورة فى اتخاذ قرارى الحاسم بشأنها..

فأنا سيدة فى الثانية والثلاثين من العمر، نشأت بين أبوين منفصلين، وتنبهت مداركى فوجدتنى أعيش مع أمى وشقيقى الذى يكبرنى بعامين فى حين يعيش أبى بعيدا عنا ولا تربطنا به صلة سوى زيارات متباعدة متقطعة كنت أناديه خلالها بيا «أنكل» فى حين كان خالى يعيش معنا ويرعانا وكنا نحبه كثيرا ونناديه بالكلمة الحبيبة لكل طفل وهى كلمة بابا.. إلى أن توفى فجأة ـ رحمه الله ـ وأنا فى العاشرة من عمرى ففقدت بوفاته سندا عاطفيا وإنسانيا أساسيا لى فى الحياة، وكانت وفاته أول صدمة قاسية فى طفولتى، أما أمى فلقد كان وقع الصدمة عليها أشد وأقسى، وكانت مثالا للأم الحنون المضحية بكل شىء من أجل أبنائها فواصلت كفاحها لتربيتنا بمرتبها من عملها. ولم يدم الحال طويلا للأسف إذ أصيبت وأنا فى الرابعة عشرة من عمرى بنزيف حاد فى المخ من فرط ما عانت من عناء الحياة وحيدة بلا زوج ولا شقيق يخفف عنها بعض العبء، ورحلت الأم الطيبة الحنون عن

الحياة وتركتنى مع شقيقى وحيدين محرومين من الأم الراحلة ومن الأب الغائب، وتغيرت حياتنا برحيلها تغيرا كليا فكانت خالتى تأتى لتقيم معنا فى موسم الدراسة وننتقل نحن للإقامة معها فى فترة الإجازات، ونواجه الحياة بمعاش أمى التى تكفلت بنا - رحمها الله - فى حياتها وبعد مماتها، ومضت الأيام بنا بحلوها ومرها ووصلنا إلى المرحلة الجامعية، فاستقللنا بحياتنا فى مسكننا أنا وشقيقى وأصبحنا نعتمد على أنفسنا فى رعاية شئوننا مع بعض الزيارات من جانب أبى الذى أصبحت صلتنا به أقوى بعد رحيل أمنا - وإن لم تصل أبدا إلى مستوى العلاقة الطبيعية بين الأب وأبنائه.

وفى عامى الجامعى الثالث وجدت نفسى غارقة فجأة فى مشاعر الحب الفياضة تجاه أحد أصدقاء شقيقى الوحيد، الذى بادلنى حبا بحب أكبر، وتعاهدنا على الارتباط بعد انتهائه من دراسته، وتقدم بالفعل لخطبتى بعد تخرجه بأيام وكانت إمكاناته المادية محدودة فلم أتوقف أمام ذلك لحظة.. فقد كنا نؤمن بأن الحب كفيل بحل كل المشكلات وتخليت عن أحلام كل فتاة فى الشبكة الثمينة والشقة الواسعة وتزوجته بخاتم الزواج فقط وتفاءلت خيرا بأن الحياة سوف تبتسم لى أخيرا وبعد عشرين عاما من الأحزان والحرمان فى الطفولة والصبا، وبدأت حياتى الزوجية معه بكل الحب والإخلاص اللذين اشتهيت فى أعماقى أن أمنحهما للرجل الذى تفتحت عليه مشاعرى العاطفية الحبيسة

لأول مرة فى حياتى، وأصبح زوجى هو دنياى التى لا دنيا لى غيرها.. ورجاى الذى لا أرى رجلا سواه فى الكون كله. وبالرغم من أن حياتنا لم تكن ناعمة ولامترفة من الناحية المادية إلا أن ذلك لم يقلل لحظة من تمسكى بها، وحرصى عليها فلقد كنت فى أشد الحاجة إلى ما حرمت منه فى طفولتى وصباى وهو الحب والحنان والاستقرار وليس إلى أى شىء مادى آخر.

وأنجبت من زوجى طفلا بعد عام من زواجنا، ثم طفلة أخرى بعد أعوام من الزواج.

ومضت تسع سنوات من الزواج تخرجت خلالها، وبلغ ابنى عامه الثامن وطفلتى عامها الرابع واستمتعت فيها بإحساس الأمان والحب والاستقرار.. ومنذ حوالى عامين فقط بدأت ألاحظ فجأة تغيرا طارئا فى سلوك زوجى تجاهى، فلقد بدأ يتغيب عن البيت أوقاتا طويلة كما بدأ يمضى بعض الليالى خارج البيت بدعوى أن عمله يستدعى ذلك أحيانا، ثم ساءت معاملته لى فجأة وشابها الجفاء والغلظة بلا مبرر.

واستقل بغرفة خاصة به فى البيت يغلقها عليه وهو موجود بها ويغلقها خالية حين يغادره وقدرت أنها قد تكون نوبة ملل طارئة من الحياة الزوجية قد يمر بها بعض الأزواج أحيانا وستنتهى بمرور الوقت ويعود إلى طبيعته معى.. ولكن هيهات أن يحدث هذا يا سيدى فلقد ازداد ابتعادا وجفاء حتى أهملنى تماما وأهمل

طفليه، وحرت فى تفسير ما أصابه من تغير لم أر له سببا واضحا فى حياتنا حتى عرفت من بعض الأصدقاء أنه على علاقة بامرأة أخرى. وصدمت بما عرفت وحاولت استرجاع زوجى وإعادته إلىّ بشتى الطرق والحيل لكن جهودى كلها باءت بالخيبة والفشل..

وبدلا من أن أسترجعه فلقد ازدادت العلاقة بيننا سوءا.. يسبنى بأقذع الألفاظ ويمد يده علىّ بالضرب والإيذاء أحيانا وتدخل بيننا الأهل والأصدقاء للإصلاح وجمع الشمل فباءت مساعيهم جميعا بالفشل إذ لم يعد زوجى يستمع لأحد ولا حتى لأقرب الناس إليه، وآثرت بعد كل ما حدث فى حياتنا أن أترك بيت الزوجية لفترة من الوقت لعله يراجع نفسه وضميره خلالها ويتذكر اللحظات الحلوة الطيبة التى كانت لنا فى سنواتنا السابقة، ويشعر بمدى الجرح والألم والحرج الذى سببه لى بسلوكه هذا معى فإذا به يصر على نفس موقفه وإذا بى أسمع من بعض الجيران أنهم قد شاهدوه أكثر من مرة يغادر عش الزوجية الذى بنيناه معا، وشهد أيامنا الحلوة متأبطا ذراع امرأة أخرى غير صاحبة البيت وأم طفليه بلا خجل ولا حرج ومادت الأرض بى حين سمعت ذلك وأحسست أن الدنيا كلها تدور بى ووجدت نفسى أمام السؤال الصعب الذى ارتجفت أمامه وهو: هل أنفصل عنه نهائيا فأعرض أولادى لنفس التجربة القاسية التى عشتها أنا وشقيقى الوحيد بين أبوينا المنفصلين والتى ماتزال بعض آثارها الحزينة كامنة فى أعماقى حتى الآن؟ أم ترى هل أرضخ للأمر

الواقع وأحاول تغييره خطوة بعد خطوة حرصا على مستقبل أبنائى وعلى زوجى الذى لم يعد يراعى شيئا فى علاقته بى؟ وفكرت فى الأمر طويلا ثم كان قرارى بأن أعود إلى بيتى وأحاول حمايته من أن يتهدم، عسى أن أجد وسيلة ناجحة فيما بعد لاسترداد زوجى الشارد بعيدا عنى، وعدت إلى بيت الزوجية مع أحد أقاربى فلم يهتز لزوجى رمش حين رآنى عائدة مع الطفلين إلى بيت الزوجية الذى شهد من قبل حبنا وقصة كفاحنا لبنائه.

واحتفظ زوجى «باستقلاله» عنى فى غرفته كما كان الحال قبل مغادرتى لبيت الزوجية ومضت الأيام بى وأنا أعيش فى بيتى فى صمت ثقيل مع فارق خطير وجديد فى علاقتى بزوجى وهو أنه قد أصبح لا يطيق رؤيتى أو الكلام معى أو مجرد سماع صوتى، فى نفس الوقت الذى ينفطر فيه قلبى لهفة على لمسة عطف وحب منه سامحه الله وغفر له. فإذا حاولت أن أطرق باب غرفته المغلق دائما لأتكلم معه فى أى شأن من شئون حياتنا استقبلنى بأقذع الكلمات ثم أغلق الباب فى وجهى، وتكرر هذا الموقف بيننا مرارا حتى أصبت بصداع دائم لا يهدأ إلا بتناولى المسكنات القوية. وحل الصمت القاتل بيننا نهائيا.. وكلما نظرت إلى الطفلين الصغيرين اللذين يشاهدان ما يجرى بين أبيهما وأمهما مما لا ذنب لهما فيه يتفتت قلبى إشفاقا عليهما مما سوف تحمله لهما الأيام فى المستقبل. وكم من مرة يا سيدى ذللت نفسى لزوجى وقلت له إننى فى أشد الحاجة إليه ورجوته ألا يتركنى وحيدة لأن المرأة تحتاج

إلى الكلمة الحانية خاصة من كان لها تاريخ طويل مع الحرمان مثلى، ولكن بلا جدوى ولا أمل فقد كان يجيبنى دائما بقوله إنه قد خلق هكذا ولن يتغير وإن من الأفضل أن أعتبر أن زوجى قد مات، وأن الشيء الوحيد الذى يريده منى هو أن أخرج من حياته للأبد لأنه يشعر ـ كما يقول ـ بالميل إلى التقيؤ والغثيان كلما رآنى، ولأنه لا يطيقنى منذ أول يوم لنا فى حياتنا الزوجية سامحه الله.

ولك يا سيدى أن تتخيل عمق القهر الذى تشعر به زوجة شابة مثلى لم تحب ولم تعرف ولم تحلم برجل آخر سوى بزوجها حين تسمع منه هذا الكلام الجارح الذى يعبر عن كراهية شديدة تعجبت لها طويلا، وسألته مرارا عن أسبابها فلم يجبنى سوى بأنه لم يحمل لى مشاعر الحب فى يوم من الأيام وأننى لست سوى غلطة عمره!

فما العمل يا سيدى مع زوجى القاسى هذا؟ لقد مضى الآن عامان كاملان على هذا الحال المؤلم لا يقربنى ولا أقربه ولا يوجد بصيص أمل واحد فى استرجاعه فى حين أنى أحس بأننى فى أشد الحاجة الآن لمن يمسك بيدى ويعيننى على أمرى؟ ولم أعد أستطيع التحمل أكثر من ذلك.. فأنا أشعر بالاحتراق فى كل لحظة ولا أعرف كيف أحتمل المزيد من هذه الحياة القاسية الجافة؟

فهل أبقى مع هذا الزوج الذى لا أمل فى استرجاعه.. وإلى متى أستطيع تحمل هذه الأوضاع الشاذة!

أم هل أنفصل عنه بعد أن استنفدت كل وسيلة معروفة وغير معروفة لاسترجاعه بلا جدوى حتى إنه طالبنى بألا أتعب نفسى بالاستمرار فى المحاولة لأننى قد أصبحت خارج حياته للأبد وعلما بأنه قد تخلى أيضا عن مسئولياته المادية طوال العامين الماضيين وأحاول أنا أن أفى بها حتى لا يتأثر مستوى معيشة الطفلين بمرتبى من وظيفتى وأحيانا بمساعدة من أبى وشقيقى؟

فماذا تنصحنى أن أفعل يا سيدى؟

□ **ولكاتبة هذه الرسالة أقول:**

وماذا يمثل الزوج فى حياة زوجته حين ينبذها ويجتنبها عامين طويلين يتخلى خلالهما عن مسئوليته الأدبية والإنسانية والعاطفية تجاهها ويهملها ويهمل أطفاله منها ويتخلى حتى عن مسئوليته والتزاماته المادية عنها وعنهم؟

ماذا يبقى منه إذن سوى وجوده فى «الجوار» بلا دور ولا فاعلية فى حياة زوجته وأطفاله، مع حلول الصمت الثقيل والجفاء القاتل بين الزوجين إلى حد لا يتورع معه الزوج عن إيلام زوجته وسحق مشاعرها بمصارحتها بأنه يشعر بالغثيان والميل للقيء حين يراها؟

لقد تعلمنا من أدب النبوة يا سيدتى أن صاحب المروءة والدين إذا أحب زوجته أعزها وأكرمها، وإذا كرهها لم يظلمها ولم يؤذ مشاعرها بما تكره من الكلام، حتى لقد أباح له دينه أن يكذب على

زوجته عند الضرورة إذا ألحت عليه بالسؤال عن حقيقة مشاعره تجاهها فرخص له بأن يصارحها بحبه لها حتى وإن يكن لا يحمل لها من مشاعر الحب شيئا حرصا على كرامتها، وإرضاء لنفسها عسى الله أن يغير ما بينهما ذات يوم فلا يكون قد جرح مشاعرها وأهان كرامتها بالإجابة الحقيقية ذات يوم، وهى إحدى الحالات الثلاث التى أبيح فيها الكذب على شدة كراهية الإسلام له وتحريمه إياه وهى حالة الحرب.. وحالة السعى للإصلاح بين المتخاصمين إذ يجيز للمرء بأن ينقل لأحد الطرفين عن الآخر خيرا وإن لم يقله، ثم فى «حديث الرجل لزوجته والزوجة لزوجها» أى فى حالة إلحاح كل منهما على الآخر بأن يعرف حقيقة مشاعره تجاهه. فكيف يجيز زوجك لنفسه أن يمتهن مشاعرك على هذا النحو اللاإنسانى؟.. وماذا يختلف الطلاق الصريح عن هذا الحال المؤسف الذى تعيشينه الآن سوى فى علانية الانفصال والافتراق فى المكان بعد أن تحقق الانفصال الصامت.. والافتراق فى المشاعر والأحاسيس والمضاجع؟.

نعم.. قد يموت الحب أحيانا.. ولأسباب مختلفة، لكن الحب الحقيقى الصادق - لا يتحول أبدا إذا انتهى ولأى سبب إلى كراهية مريرة عميقة كهذه الكراهية التى يعبر لك عنها زوجك بهذه الكلمات القاسية المؤلمة.. فأين الخطأ فى قصتكما يا سيدتى.. وكيف تدهورت العلاقة بينكما إلى هذا الحد المؤلم؟

وماذا يعيبه عليك أو ينقصه فيك؟ إذا لم يكن لك أى إسهام فى

تدهور العلاقة بينكما - وهذا ما أميل إلى الاقتناع به ؟ فلا تفسير لما جرى بينكما سوى فى أنكما قد ارتبطتما عاطفيا وتزوجتما فى سن مبكرة تفتقر إلى نضج المشاعر وثباتها، فلقد تزوجتما وعمرك ٢١ عاما وعمره - وهو صديق شقيقك وقرينه - يدور حول الثالثة والعشرين غالبا فاختار كل منكما الآخر وارتبط به في سن قد لا تسلم معه المشاعر من التقلب والأهواء بعد بضع سنين، فإذا كانت مشاعرك تجاهه قد ثبتت وتعمقت تدفعك إلى ذلك طبيعتك وتطلعك القديم إلى الحنان والأمان، فإن مشاعره تجاهك لم تثبت للأسف - ولم تصمد للأنواء والتقلبات المزاجية ونداء المغامرة والتجارب العاطفية الخارجية بلا محاولة لمغالبة النفس.. وردها عن ضعفها دفاعا عن الحب القديم.. وحرصا على مصلحة الأبناء، وانعكس كل ذلك على علاقته بك، وحين عجز عن مواجهة الحقيقة حاول أن يقنع نفسه ويقنعك بأنه لم يحبك فى يوم من الأيام، ولم يكن يطيقك منذ أول يوم فى علاقته بك وتمادى فى هذه المحاولة فاعتبرك خطأ عمره، وهى حيلة نفسية معروفة يحاول بها زوجك - دون أن يعى ذلك - أن يتخلص من إحساسه بالذنب تجاهك لخيانته لعهدك وللحب القديم الذى جمع بينكما، والمؤكد أنه قد أحبك ورغب فيك كما أحببته أنت ورغبت فيه، لكن حبه لك لم يكن ناضجا بالقدر الذى يسمح له بالصمود أمام الزمن ومتغيراته كما صمد حبك أنت له وتعمق، بدليل أن حياتكما معا لم تشهد أية عاصفة حقيقية خلال السنوات التسع الأولى من زواجكما، فإذا كان يزعم الآن

أنك «خطأ عمره» فالحق أنه خطأ مشترك لكل منكما فى الارتباط المبكر وقبل التأكد من ثبات المشاعر ونضج الشخصية الذى يسمح للإنسان بتقدير العواقب، وتفضيل مصلحة الأبناء على أية اعتبارات شخصية أخرى.

واستمرار الحال على ما هو عليه بينكما ولأى عدد آخر من السنين لن يكون له غالبا من معانى الزواج ومقاصده سوى بقاء الأطفال تحت سقف واحد مع أب ينادونه بكلمة الأبوة فلا يحتاجون إلى مناداة غيره بها كما كنت تفعلين مضطرة فى طفولتك الحزينة، وإذا كان لهذا الوضع بعض الأثر الإيجابى على شخصية الأطفال برغم عدم مثالية باقى الظروف لتربية الأبناء، فإنك وحدك يا سيدتى التى تستطيعين أن تقدرى حدود قدرتك على احتمال هذا الوضع الشاذ بينك وبين زوجك وإلى أى مدى إكراما لطفليك وأملا فى تغير الأحوال للأفضل فى الغد القريب، فإذا اخترت الصمود لفترة أخرى إرضاء لضميرك وواجبك تجاه طفليك.. فلا تمتهنى نفسك وكرامتك أكثر مما فعلت حتى الآن باستجداء مشاعر من لا يزيده الاستجداء إلا نفورا وازدراء وإيلاما لك، وإنما احتسبى هذه الفترة المقبلة وهذا الوضع الشاذ عند ربك تضحية أخرى تقدمينها طائعة لأطفالك، فإذا استيقظ ضمير زوجك واستشعر تقصيره فى حقوقك وأدى واجباته تجاهك وتجاه طفليك فلا بأس باستمرار الحياة معه وطى هذه الصفحة من حياتكما للأبد، أما إذا لم يتغير الحال وازداد سوءاً فلا لوم

عليك إن أنقذت نفسك من المعاناة والحرمان.. وانفصلت عن زوجك.. واستقللت بحياتك عنه، ولن يتغير وضعك كثيرا فى مثل هذه الحالة فأنت شبه مستقلة عنه الآن ماديا واجتماعيا، ولا بأس بك بعد ذلك إذا بدأت وبعد فترة نقاهة مناسبة تتخلصين فى خلالها من رواسب حب هذا الزوج الغادر، بحياة جديدة، مع آخر لا يشعر بالغثيان حين يراك وإنما بالبهجة والارتياح لرؤياك ولايعتبرك خطأ عمره.. وإنما هدية السماء له، وليس ذلك بكثير عليك ولا هو ببعيد عن الواقع.. فمن غرس - بإرادته جل شأنه - حب هذا الزوج الغادر الكاره فى قلبك قادر أيضا بمشيئته على أن ينتزعه منه وأن يحل غيره محله فيه.

وعندها سوف تكتشفين أنك قد أحببت ذات يوم من لم يكن يستحقك أو يقدرك، وأن نصفك الصحيح لم يكن ذلك الظالم القاسى الذى عانيت الكثير فى استرضائه واستجداء مشاعره بلا طائل، وإنما هو ذلك «الإنسان» الذى ستضعه الحياة فى طريقك فى الوقت المناسب، والذى سيختارك اختيار القلب والعقل معا وهو فى سن النضج النفسى وثبات المشاعر فيعوضك بحبه وإعزازه لك وتقديره لشخصك عن كل ما تأذى منه القلب قديما من جحود من كنا نستجدى منه لمحة الحب والحنان فيتأبى بها علينا، ويتلذذ بامتهاننا وإيلامنا، حتى جفت مشاعرنا تجاهه وعرف بعد فوات الأوان ماذا أضاع من بين يديه مما لن تجود عليه السماء بمثله أو ببعضه ذات يوم.

هذه هي نصيحتي لك يا سيدتي.. أن تمنحي طفليك - وليس زوجك - فرصة أخرى وأخيرة لا تتعدى بضعة شهور أملا في تغير الظروف، ودون أي محاولة من جانبك للتذلل لزوجك أو استجداء مشاعره أو امتهان نفسك ومشاعرك معه ومع الحرص في نفس الوقت على تفادي أي احتكاك أو صدام معه، فإذا كنت عاجزة حتى عن احتمال هذه الشهور الإضافية فلا لوم عليك ولا ملامة إذا بادرت بطلب الانفصال من الآن، ووضع زوجك أمام مسئولياته كأب مع ما في ذلك من غبن للأطفال الصغار، وحقهم في الاستقرار والأمان.

وإذا كنت قد قلت مرارا من قبل إنني لا أومن باستجداء زوجة كارهة غير مخلصة للرجوع إلى حياة تمقتها وتصرح بكراهيتها لها، فإني أيضا وبنفس القدر لا أومن باستجداء زوج كاره غير مخلص للرجوع إلى حياة يمقتها ويصرح بكراهيته لها.. بل ويتعدى في ذلك كل الأعراف الإنسانية فيصارح زوجته بأنه يشعر بالميل للقيء كلما رآها. إذ ماذا نستطيع أن نقول لمثل هذا الزوج وبعد أن فشلت معه كل الحيل وطال الحرمان.. ووصلت زوجته إلى حد «الاحتراق» كل لحظة دون أن يلين له قلب.. أو ترق له مشاعر؟. ماذا نستطيع أن نقول له سوى.. «وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته» ؟

صدق الله العظيم.



يا إلهى.. لم يدر بخلَدى قط ان «جبين البشر» يحمل كل هذه الهموم!

الفتاة الجميلة جرتروود بطلة رواية «السيمفونية الريفية» للأديب الفرنسى «أندريه جيدا» حين نجح العلاج فى رد البصر إليها لأول مرة.. وتطلعت حولها ترقب البشر الذين سمعت من قبل أصواتهم بغير أن تراهم وتوهمتهم جميعاً من السعداء لمجرد انهم «يرون» ماكانت محرومة من رؤيته!

الناشر: مدبولى الصغير